قراءة جديدة في نشأة دولة المماليك
في مصر بين الصليبين والمغول

إعداد

دكتور

صبري عبد اللطيف سليم

أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية المساعد

تقديم

استخدم الأيوبيون – شأن أسلافهم ممن حكموا مصر من الطولونيين والإخشيديين والفاطميين – المماليك فى جيوشهم باعتبارهم جزءاً مهمًا من كتائب الفرسان التى كانت تسهم بقدر كبير فى إنجاز المهمات الصعبة فى أثناء القتال.

وكان هؤلاء المماليك يُجلَبون إلى مصر – فى الغالب – فى سن صغيرة من أماكن بعيدة فى بلاد الترك وما يجاورها من بلاد شرقى أوربا، فتجرى عليهم اختبارات عدة دقيقة للتأكد من خلوهم من الأمراض والعيوب الجسمانية، وكذا التأكد من سلامة حواسهم، وجمال صورهم، وقوة بنيانهم.

وفى المراكز الخاصة كان هؤلاء المماليك يتلقون صنوفًا من التدريب العسكرى الجاد، فيكتسبون المهارة فى الأداء والسرعة فى الحركة، والدقة فى تنفيذ الأعمال المنوطة بهم، كما كانوا يتلقون آيات من القرآن، ويعلَّمون بعض قواعد اللغة العربية وآدابها، فيكبرون على الإسلام دينًا، ومصر وطنًا، والسلطان أبا روحيًا لهم.

وفى نهاية عصر الأيوبيين ازداد المماليك مكانةً ونفوذًا، فقد اعتمد عليهم الصالح نجم الدين أيوب اعتمادًا واضحًا، وأحلَّهم تدريجيًا فى فرق خاصة فى الجيش الأيوبى بعد أن ملَّ من كثرة شغب جنده من الأكراد والخوارزميين الذين جلبهم معه من الشرق حين كان يحكم حصن كيفا نائبًا عن أبيه السلطان الكامل الذى توفى فى الحادى والعشرين من رجب ٦٣٥هـ/ التاسع من مارس ١٢٣٨م.

وفى الحقيقة لم يكن نجم الدين أيوب ليعطى ثقته للمماليك عامة بل اختص منهم من كان من صناعته هو، أو مَنْ عُرِفَ بولائه الشديد له، إذ لم يكن غافلاً عما فعلوه بأخيه العادل الثانى حين عزلوه عن الحكم فى مصر. وأرسلوا إليه هو يستدعونه إلى مصر لاعتلاء عرشها والإمساك بمقاليد الحكم فيها.

وعلى الرغم من ذلك فقد بلغت العلاقة بين الصالح نجم الدين وكبار أمراء

المماليك فى مصر أقصى حالات التوتر حين انسحبوا من دمياط، وتركوها فريسة سهلة الفرنسيين ومليكهم القديس لويس التاسع، فى الثانى والعشرين من صفر ٦١٧هـ/ السادس من يونيه ١٢٤٩م.

وشاءت الأقدار أن تقرب كثيرًا بين كبار أمراء المماليك وأطماعهم فى الوصول إلى مقاليد السلطة السياسية فى مصر، فقد توفى السلطان الصالح نجم الدين أيوب. فى ليلة النصف من شعبان ٦٤٧هـ/ الثالث والعشرين من نوفمبر ١٢٤٩م، وكان آنذاك فى الرابعة والأربعين من العمر، واستشهد الأمير فخر الدين يوسف بن الشيخ، وكان آنذاك فى السادسة والستين من عمره فى أثناء مقاومة الهجوم المباغت الذى شنه الصليبيون بقيادة الكند ارتو شقيق الملك لويس التاسع على مدينة المنصورة فى الرابع من ذى القعدة ٦٤٧هـ/ الثامن من فبراير ١٢٥٠م.

ولم يحل وصول المعظم تورانشاه بن الصالح نجم الدين أيوب إلى مدينة المنصورة فى الحادى والعشرين من ذى القعدة ٦٤٧هـ/ الخامس والعشرين من فبراير ١٢٥٠م دون طموحات المماليك فى الوثوب على السلطة السياسية فى مصر، إذ سرعان ما نجحوا فى اغتياله فى أواخر المحرم من ٦٤٨هـ/ الثانى من مايو ١٢٥٠م بعد أن ظهر للعيان عزمه على التخلص من كبار أمرائهم.

واستوت شجرة الدر أرملة نجم الدين أيوب فى الثالث من صفر ٦٤٨هـ/ السابع من مايو ١٢٥٠م على عرش مصر مدة ثمانين يومًا تقريبًا، برضاء كامل من أمراء المماليك الذين كانوا فى مرحلة استكشاف وترقب لما سوف تسفر عنه الأحداث من نتائج حول تحديد وضعهم السياسى.

ولا أميل فى الحقيقة إلى الرأى الذى يعتبر فترة حكم شجرة الدر بداية لنشأة الدولة المملوكية فى مصر، إذ لم يكن وصولها إلى الحكم إلا لظروف خاصة نتجت عن كونها زوجة سابقة للصالح نجم الدين أيوب، الذى توفى أبناؤه الثلاثة: خليل، المغيث، تورانشاه تباعًا، ولم ير المماليك مصلحة لهم فى ذلك الوقت – فى استمرار

دفة الأمور فى مصر فى أيدى ساداتهم الأيوبيين وعلى رأسهم الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب الشام الذى كان يرى نفسه أحقَّ الأيوبيين بهذا الأمر.

إذن يمكن القول إن وجود شجرة الدر فى سدة الحكم لم يكن إلا مرحلة مؤقتة تمهيدية للوثوب على العرش من قبل المماليك، فمن المعروف أن شجرة الدر لم يكن لديها مِنْ الأبناء مَنْ تورثه العرش بعد وفاتها، وأن بقاءها فى الحكم - مهما طال - سيصبُ فى النهاية فى مصلحة المماليك الذين كانوا فى حاجة ماسة إلى بعض الوقت حتى تستقر الأمور عقب رحيل الفرنسيين عن مصر، واغتيال تورانشاه على أيديهم.

وعلى هذا، فأول سلاطين المماليك فى مصر هو عز الدين أيبك التركمانى الذى صار سلطانًا عقب زواجه من شجرة الدر فى التاسع والعشرين من ربيع الآخر ٦٤٨هـ/ الحادى والثلاثين من يوليو ١٢٥٠م، وقد تنازلت شجرة الدر بموجب هذا الزواج، وتحت ضغوط عدة عن عرش مصر.

ولم تكن نشأة الدولة المملوكية فى عهد أيبك ومن تلاه من سلاطين المماليك أمرًا سهلاً، فقد توجب عليها مناهضة الصليبيين فى ساحل الشام بعد أن خرج لويس التاسع من مصر مدحورًا واستقر فى عكا مجمعًا حوله الصليبيين هناك، ومحاربة المغول القادمين من الشرق بعد أن تداعت أمام سطوتهم كل القوى الإسلامية فى الشرق الإسلامى وعلى رأسها الخلافة العباسية فى بغداد التى نجح هولاكو خان فى الاستيلاء عليها، وقتل الخليفة المستعصم بالله فى يوم الأربعاء الرابع عشر من صفر ٦٥٦هـ/ العشرين من فبراير ١٢٥٨م.

وجاء انتصار المماليك بقيادة السلطان المظفر قطز على المغول فى عين جالوت فى يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان ٦٥٨هـ/ الثالث من سبتمبر ١٢٦٠م تدعيمًا واضحًا لبنيان الدولة المملوكية فى مصر، واكتمل هذا البنيان بالإنجازات الضخمة التى تحققت فى عصر الظاهر بيبرس ٦٥٨ : ٦٧٦هـ. حيث اكتسبت الدولة المملوكية شرعيتها من قيام السلطان الظاهر بيبرس بإحياء الخلافة العباسية فى

القاهرة، وإعمال هيمنته على الحرمين الشريفين في الحجاز. كذلك نجح الظاهر بيبرس في إحكام قبضته على الشيعة الإسماعيلية في مصر والشام، كما نجح في كبح جماح البدو في صعيد مصر، وفي تأمين حدود مصر الجنوبية من تحرشات النوبة.

وفي مواجهة الصليبيين نجح الظاهر بيبرس في انتزاع عدد مهم من قلاعهم الساحلية، وأرسوف البحرية ٦٦٣هـ، صفر ٦٦٤هـ، يافا، وانطاكية ٦٦٦هـ بل حاول بأسطول بحري في ٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م غزو جزيرة قبرص التي تعد مركز الإمداد الأول للصليبيين في ساحل الشام من قبل الصليبيين في غربي أوربا، وأصبحت عكا وهي المعقل الرئيسي لهم في ساحل الشام واقعة تحت التهديد المباشر لقواته.

وفي مواجهة المغول، كشف بيبرس عن براعة سياسية تجلت في قبوله التحالف مع بركة خان بن جوجي بن جنكيز خان زعيم مغول القبجاق ضد بني جلدتهم من مغول إيران بزعامة هولاكو بن تولوي بن جنكيز خان ثم ابنه آباقا من بعده، بل إن بيبرس نجح عمليًا في مواجهة مغول إيران حين هزم جيشهم وأتباعه من جند سلاجقة الروم بالأناضول في موقعة أبلستين في ذي القعدة ٦٧٥هـ/ إبريل ١٢٢٧م.

وكان بيبرس قد هاجم بعنف من قبل في ذي القغدة ٦٦٤هـ/ أغسطس ١٢٦٦م الأرمن – وهم صليبيون متحالفون مع مغول إيران – فقهرهم وأسر ابن ملكهم وفرض عليهم الجزية، فأذعنوا له مكرهين، واكتمل نجاح الظاهر بيبرس في إكساب دولة المماليك صفة الدولة التي توطدت أركانها، وتثبتت دعائمها حين قرب إليه كبار أمراء الدولة، وأغدق عليهم الرتب والإقطاعات، فانصرفوا إلى خدمة الدولة طائعين وباذلين أقصى طاقتهم في إدارتها وحماية مصالحها، بل لقد أثبت بيبرس نفسه إنه رجل دولة من الطراز الأول حين أقدم على اتخاذ خطوات إدارية حازمة منها:

١- إجراء تعديلات إدارية حاسمة شملت نيابة السلطنة والوزارة والدواوين، وبخاصة ديوان المظالم.

٢- تنظيم القضاء، وجعله على المذاهب الأربعة بدلاً من قصره على المذهب الشافعى حتى لا يتعطل النظر فى قضايا الرعية.

٣- تقريب العلماء والقضاة وكبار المتصوفة ومنهم القبارى والشاطبى وأحمد البدوى.

٤- إبطال الضرائب التى فرضها السلطان الراحل قطز على الأهالى قبل خروجه إلى محاربة المغول فى عين جالوت.

٥- تشديد العقوبة على المخالفين لتعاليم الدين الإسلامى، ومن ذلك إغلاق الحانات وإبطال الخمور.

ويحاول هذا البحث من خلال هذه الصفحات، استكمال ما سبقه من دراسات جادة حول نشأة دولة المماليك فى مصر من خلال إلقاء الضوء على بعض التفاصيل الدقيقة المرتبطة بهذه النشأة التى تمت فى ظلّ ملوك أقوياء هم أيبك وقطز وبيبرس الذين حملوا على أكتافهم عبء نهوض هذه الدولة الفتية التى حفظت للمسلمين فى مصر والشام والحجاز كرامتهم وبلادهم ومقدساتهم من أن تنتهك على أيدى الصليبيين والمغول وحلفائهم فى وقت بالغ الحرج.

وقد انقسم هذا البحث إلى مباحث أربعة هى :

١ - بين الأيوبيين والمماليك.

٢-- المغول.

٣-- المظفر قطز وعين جالوت

٤- تأسيس الدولة والظاهر بيبرس.

وأرجو أن اكون قد وفقت إلى عرض هذا الموضوع فى الصورة التى توازى أهميته.

المبحث الأول

بين الأيوبيين والمماليك

نجح أمراء المماليك فى مصر فى إقصاء الملك الأيوبى العادل الثانى عن العرش فى شوال سنة ٦٣٧هـ يونية ١٢٤٠م ولم يكن قد مضى على ولايته فى الحكم بعد سوى عامين وبضعة شهور، وارتضوا مكانه أخاه الأكبر الصالح نجم الدين أيوب الذى اعتلى عرش مصر فى نهاية شوال من نفس السنة[١].

وقد رأى نجم الدين بعد أن شعر بفضل هؤلاء المماليك عليه أن يستكثر من جلب الكثير منهم صغاراً ليكونوا من صناعته هو، وليستغنى بهم تدريجياً عن أتباعه من الأكراد والخوارزميين الذين كانوا كثيرى الشغب والتمرد عليه[٢]. وبالطبع كان نجم الدين يهدف من وراء ذلك إلى تقوية نفوذه داخل مصر، وتدعيم سيطرته على الممتلكات التى آلت إليه خارجها[٣].

وقد اختار الصالح نجم الدين جزيرة الروضة فى نهر النيل سكناً لهؤلاء المماليك[٤] وأسماهم المماليك البحرية لإقامتهم فى هذا المكان[٥] وأسماهم أيضاً

---

(١) ابن دقماق: الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين جـ٢ ص٣٣ – ص٣٤، المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك ق٢ جـ١ ص٢٩٥، ابن إبراهيم الحنبلى: شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ص٣٢٩.

(٢) أبو الفداء: المختصر فى أخبار البشر جـ٣ ص١٦٢، الذهبى: العبر جـ٥ ص١٤١، ابن سباط: صدق الأخبار جـ١ ص٣٢٩، حسنين محمد ربيع: النظم المالية فى مصر زمن الأيوبيين ص٦٦.

(٣) وليم موير: تاريخ دولة المماليك فى مصر ص٣٧، سعيد عبد الفتاح عاشور: مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك ص١٦٧.

(٤) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ٦ ص٣٤١، السيوطى: حسن المحاضرة جـ٢ ص٣٨١، عبد الله محمد جمال الدين: من تاريخ الشرق الإسلامى فى العصر الحديث ص١٨.

(٥) المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك ق١ جـ٢ ص٣٤٠، ابن دقماق: الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين جـ٢ ص٣٧، ستانلى لينبول: سيرة القاهرة ص١٧٣.

الصالحية نسبة إليه وكان يقيم معهم هناك فى قلعتها أحياناً لمتابعة أحوالـهم، وأفاض عليهم – فيما بعد – الإقطاعات والرواتب والجوامك[1].

وقد حاول المماليك استغلال مكانتهم عند السلطان نجم الدين فى تحقيق مصالح خاصة فحاولوا فرض سطوتهم على العامة، وابتزاز بعضهم لكنهم اصطدموا بشخصية السلطان نفسه، وكان قوى النفس مهاباً حازماً، عفيف اللسان والذيل كما تقول بعض المصادر التاريخية[2].

وظهر فى مجال المعارضة أيضاً الشيخ الإمام عز الدين بن عبد السلام الشافعى الذى رفض أفعالهم، وأصرَّ على بيع كثير منهم فى مزاد علنى، وردِّ أثمان بيعهم إلى بيت مال المسلمين[3].

وقد شاءت الأقدار أن ترتبط آخر الحملات الصليبية على مصر بآخر أيام الصالح نجم الدين أيوب، ذلك أن البابا فى روما وملوك دول غربى أوربا لم يرقهم عودة بيت المقدس إلى أيدى المسلمين مرة أخرى سنة ٦٤٢هـ، ومن ثمة قدمت الحملة الصليبية السابعة التى قادها الملك الفرنسى القديس لويس التاسع إلى مصر، ونجحت فى الاستيلاء على مدينة دمياط دون مقاومة فى الثانى والعشرين من صفر سنة ٦٤٧هـ الموافق للسادس من يونيو سنة ١٢٤٩م[4].

ولم يحتمل نجم الدين سماع هذه الأنباء فعاد مسرعاً من دمشق حيث عسكر عند

---

(١) حسنين محمد ربيع: النظم المالية فى مصر زمن الأيوبيين.ص٦٧ ص٧٠.

(٢) ابن قزاوغلى: مرآة الزمان ق٢ جـ٨ ص٧٧٥، النويرى: نهاية الأرب فى فنون الأدب جـ٢٩ ص٣٣٦، الذهبى: العبر جـ٥ ص١٩٣.

(٣) السبكى: طبقات الشافعية جـ٥ ص٨٠، السيوطى: حسن المحاضرة جـ٢ ص١٤، وانظر دائرة المعارف بزرك إسلامى مجلد أول ص١٩٤ باللغة الفارسية.

(٤) أبو شامة: الذيل على الروضتين ص١٨٣، بيبرس المنصورى: مختار الأخبار ص٨، جوزيف نسيم: العدوان الصليبى على مصر ص١٠٧.

مدينة أشموم طناح وهناك وافته جموع جنده الذين انسحبوا من دمياط وتركوها للفرنسيين، فاشتد غضبه وعنّف كبار أمراء المماليك تعنيفاً شديداً حتى همَّ بعضهم بالوثوب عليه وقتله غير أن الأمير فخر الدين يوسف بن الشيخ أتابك العسكر منعهم وقال: اصبروا فهو على شفا، فإن مات فقد استرحتم منه وإلا فهو بين أيديكم[١].

وهكذا ساءت العلاقة بين السلطان نجم الدين وكبار أمراء المماليك فى جيشه، لقد عزّ عليه تخاذلهم عن حماية ملكه فى أثناء غيابه، وهمَّ بهم لولا مرضه المكين الذى اشتد به، واحتياجه إليهم فى مواجهة الظروف الصعبة المقبلة، أما أمراء المماليك فكانوا يرون الموقف بصورة مختلفة، فالسلطان قد تناسى الآن أنهم كانوا أصحاب الفضل فى اعتلائه عرش مصر منذ عشر سنوات، والسلطان – كما كشفت لهم الأحداث عنه – رجل عسوف جبار يقدم على إيذاء معارضيه ولو كانوا من أقرب الناس إليه دون رحمة، فقد أمر بخنق أخيه العادل فى محبسه فى شوال سنة ٦٤٦هـ، وعاقب امرأة أبيه – أم أخيه العادل – وأخذ منها الأموال والجواهر، كما هلك فى محبسه جماعة من الأمراء وأكثر من خمسة آلاف سجين[٢] وبالتالى فإن انتقامه منهم سيكون مؤجلاً إلى حين.

وجاءت وفاة نجم الدين فى ليلة الاثنين النصف من شعبان سنة ٦٤٧هـ حلاً لهذه المعضلة التى نشبت بينه وبين كبار أمراء المماليك فى جيشه فى وقت شديد الحرج والخطورة.

ويهمنا أن نتوقف هنا عند مسألة مهمة ترتبط كثيراً بنشأة الدولة المملوكية فى

---

(١) ابن قزاوغلى: مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٧٤، الذهبى: العبر جـ٥ ص١٩٢، ابن دقماق: الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين جـ٢ ص٣٨.

(٢) السمندى: تحفة ذوى الألباب جـ٢ ص١٤٧، ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص٣٧، ابن إبراهيم الحنبلى: شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ص٣٢٩.

مصر وهى علاقة الأمير فخر الدين يوسف بن الشيخ أتابك العسكر بكبار أمراء المماليك فى الفترة ما بين وفاة السلطان نجم الدين أيوب واستشهاد فخر الدين فى الرابع من ذى القعدة سنة ٦٤٧هـ، وهى فترة لا تتجاوز ثلاثة أشهر.

يقول مؤرخ معاصر للأحداث "وبعد وفاته – أى السلطان نجم الدين أيوب – اجتمع الأمراء وأكابر الدولة، وحلفوا لولده المعظم تورانشاه، وكان بحصن كيفا، وحلفوا لفخر الدين يوسف بن الشيخ لاحتمال أن يتعذر وصول المعظم إلى مصر، واستحلفوا جميع العساكر والأكابر بمصر والشام، وتولى فخر الدين يوسف بن الشيخ تدبير المملكة وأقطع البلاد بمناشيره[1].

ولما كان الأمير فخر الدين يوسف لا ينتمى من ناحية الأصل إلى الأيوبيين الذين هم من أصل كردى، ولا إلى المماليك الذين لا أصل لهم[2] أى أنه ليس من أصحاب الحق الشرعى فى الحكم ولا من هؤلاء المتوثبين المتعطشين للسيطرة على الحكم، فقد اصبح اصطدامه بأمراء المماليك أمراً وشيكاً لا مفر منه.

ولم يخفف خروج كبير زعماء المماليك البحرية فارس الدين أقطاى إلى حصن كيفا لإحضار المعظم تورانشاه[3] من هناك شيئاً من التوتر بين الطرفين، فقد عزم المماليك على التخلص من الأمير فخر الدين فنهبوا داره، وحاولوا قتله، فسارع إلى

---

(١) ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص٣٧، المقريزى: المقفى الكبير جـ٢ ص٦٢٥، وانظر أيضاً: ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ٦ ص٣٣٢، وهو يذكر أنه تمّ تعيين الأمير فخر الدين يوسف ولياً لعهد المعظم تورانشاه.

(٢) الذهبى: العبر فى خبر من غبر جـ٥ ص١٩٤، ابن تغرى بردى: المنهل الصافى جـ٤ ص١٨٤، ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب جـ٥ ص٢٣٩ ويذكر اسمه فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ صدر الدين محمد بن عمر بن على بن محمد بن حمويه الجوينى.

(٣) ابن دقماق: الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين جـ٢ ص٣٩، ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص٣٧، ابن إبراهيم الحنبلى: شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ص٣٧٩.

استدعاء الأمراء والأكابر وقال: "أنا مالى طمع فى الملك وإنما أحفظ بيت أستاذى حتى يحىء ولده ويتسلم البلاد"، فاعتذروا له، وحلفوا على تأييده، وإظهاراً لحسن النية فقد جهز فخر الدين جماعة من مماليك السلطان الراحل ليتوجهوا إلى دمشق لما وصلها المعظم تورانشاه فى آخر رمضان سنة ٦٤٧هـ لاستعجاله فى الحضور إلى مصر، غير أن بعض هؤلاء لم يكونوا عند حسن ظن فخر الدين فيهم، فقد أوهموا المعظم تورانشاه أن فخر الدين قد حلَّف العسكر لنفسه فقرر المعظم أن يتوقف فى دمشق وأن ينفق أموالها فى العساكر وحلّف المماليك الذين بعثهم فخر الدين إليه على قتل فخر الدين(١).

وهكذا شمّر المماليك عن سواعدهم للتخلص من الأمير فخر الدين يوسف بعدما نجحوا فى إيغار صدر المعظم تورانشاه عليه، غير أن استشهاد فخر الدين وهو يدافع عن مدينة المنصورة ضد الصليبيين – وكان آنذاك فى السادسة والستين من العمر – قد حلَّ القضية فى صراع المماليك ضده من أجل الاستحواذ على السلطة.ولم يسلم فخر الدين – بعد وفاته – من أذى مماليكه هو، فقد جاءوا إلى داره فكسروا صناديقه ونهبوا أكثر ما فيها، كما نهبوا أمواله وخيله حتى قدور حمامه وأبواب داره، وما نفعه تربيته لهم، وإحسانه إليهم(٢).

ازدياد نفوذ المماليك

وهكذا أفسحت وفاة الأمير فخر الدين يوسف المجال أمام المماليك الذين أظهروا براعة عسكرية فائقة حين تمكنوا من هزيمة طليعة الجيش الصليبى التى اقتحمت مدينة

---

(١) ابن قزاوغلى: مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٧٦، النويرى: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٣٨، ص٣٥٣.

(٢) ابن قزاوغلى: مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٧٧، النويرى: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٣٩، ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص١٩٠.

المنصورة بقيادة الكونت أرتوا شقيق الملك لويس التاسع فى الرابع من ذى القعدة سنة ٦٤٧[١].

وبرزت شخصية الفارس ركن الدين بيبرس البندقدارى الذى تولى القيادة فى ذلك الوقت العصيب، فنجح فى قيادة المماليك البحرية إلى تحقيق النصر الحاسم فى تلك الموقعة، وحماية القصر السلطانى فى المنصورة من السقوط فى أيدى الصليبيين، فنالوا بذلك تقدير العامة وكذلك شجرة الدر زوجة أستاذهم الراحل السلطان نجم الدين ايوب، التى أيقنت – آنذاك – بصورة عملية أن المماليك البحرية قد أصبحوا قوة فعالة يمكن الاعتماد عليها فى المواقف الصعبة[٢].

ولم يتوقف نجاح المماليك البحرية بقيادة بيبرس عند ذلك النصر إذ إنهم قد هاجموا الجيش الرئيسى للملك لويس التاسع فى يوم الجمعة السابع من ذى القعدة سنة ٦٤٧هـ الموافق للحادى عشر من فبراير سنة ١٢٥٠م، وكان هذا الجيش قد أفلح فى العبور إلى الضفة الجنوبية لنهر اشموم واستولى على معسكر المصريين فى جديلة أى أنه قد أصبح فى أقرب نقطة إلى مدينة المنصورة من ناحية الشمال الشرقى، وشرع يعد العدة للهجوم على المدينة فى محاولة يائسة لرد الاعتبار وإنقاذ ما يمكن إنقاذه بعد مصرع الكونت آرتوا شقيق الملك وهلاك معظم رجاله هناك على أيدى المماليك والأهالى، وقد أسفرت معركة يوم الجمعة أيضاً عن نتيجة غير مرضية للملك لويس وأتباعه "فقد فقد الصليبيون بها عدداً لا يستهان به من فرسانهم ومشاتهم، وتحطمت معظم معداتهم وعتادهم، مما أضعف قوتهم، وساهم إلى حد كبير فى التعجيل بالنهاية

---

(١) أبو الفداء: المختصر فى أخبار البشر جـ٣ ص١٨٠، المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك جـ١ ق٢ ص٣٥٠، ابن سباط: صدق الأخبار جـ١ ص٣٤٧.

(٢) ابن أيبك الدوادارى: كنز الدرر وجامع الغرر جـ٧ ص٣٧٦، هانس أبرهارد ماير: تاريخ الحروب الصليبية ص٣٧٨.

الأليمة التى منيت الحملة الصليبية بها[1].

وفى الحادى والعشرين من ذى القعدة سنة ٦٤٧هـ، وصل المعظم تورانشاه إلى مدينة المنصورة[2] يرافقه جماعة من المماليك البحرية الذين أرسلوا إليه من قبل فى حصن كيفا ودمشق وعلى رأسهم الأمير فارس الدين أقطاى، ومرة أخرى برز دور المماليك البحرية حيث شكلوا أهم عناصر الانتصار على الجيش الصليبى عند فارسكور فى الثانى من المحرم سنة ٦٤٨هـ، وأسر الملك لويس التاسع عند قرية منية عبد الله واقتياده إلى دار ابن لقمان فى المنصورة[3].

ولم يفقد المماليك البحرية خلال ذلك كله أكثر من مائة نفس[4] بمعنى أنهم احتفظوا على الرغم من بلائهم البطولى فى هذه المعارك بقوتهم العسكرية كاملة، وبالتالى أصبحوا مترقبين للمكافأة التى ينبغى أن يجزلها لهم المعظم تورانشاه.

ولم تأت الريح بما تشتهى السفن، فالمعظم تورانشاه بعد أن استقامت له الأمور، وانتهى أمر الحملة الصليبية إلى الفشل استشعر تسلط المماليك البحرية وتعاظم أمرهم، فرأى أن يبادر إلى إقصائهم وتقليص نفوذهم، فعمد إلى اتخاذ عدة مواقف ضدهم أذنت باحتدام الصراع معهم ومنها:

أ- إخلاف وعده مع فارس الدين أقطاى زعيم البحرية، وكان قد وعده أن يجعله

---

(١) جوزيف نسيم: العدوان الصليبى على مصر ص١٨٥ ص١٨٦. نقلاً عن:
Kitchin: A history of France vol I. P. 344.

(٢) أبو الفداء: المختصر فى أخبار البشر جـ٣ ص١٨٠، المقريزى: المقفى الكبير جـ٢ ص٣٦٠، ابن شاهين الملطى: نزهة الأساطين فيمن ولى مصر من الملوك والسلاطين ص٢٠.

(٣) أبو شامة: الذيل على الروضتين ص١٨٤، بيبرس المنصورى: التحفة الملوكية فى الدولة التركية ص٢٥، النويرى: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٥٦.

(٤) الذهبى: العبر فى خبر من غبر جـ٥ ص١٩٦، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ٦ ص٣٦٦، ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب جـ٥ ص٢٣٩.

حاكماً على الأسكندرية، فلما أرسل إليه أقطاى يذكره بوعده على لسان بعض خواصه كان رد المعظم "أعطيه إن شاء الله جباً مليحاً يليق به" كما بلغ أقطاى أيضاً أن المعظم عزم على إرساله ببشرى الانتصار على الفرنج إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، مع توصية بالقبض عليه وقتله بمجرد وصوله إليه[1].

ب- عزله عدداً من كبار أمراء البحرية عن وظائفهم واستبدالهم بأعوانه الذين أحضرهم معه من حصن كيفا فقد عين الطواشى مسرور الخادم - وهو خادمه - أستاذ داره، وأقام صبيحاً - وكان عبداً حبشياً فحلاً - أمير جاندار، وجعل إليه أموره كلها، وأنعم عليه بأموال وإقطاعات، كما جعل له إمرة مائة وخمسين فارساً، وأمر أن تصاغ له عصا من ذهب[2].

جـ- إهانته مماليك أبيه الكبار حتى إنه كان يسميهم بأسمائهم دون ألقاب أو نعوت[3] بل إنه كان إذا جلس مع ندمائه فى الليل لمعاقرة الخمر جمع ما بين يديه من الشموع، وضرب رؤوسها بسيفه حتى تتقطع ويقول هكذا أفعل بالبحرية[4].

---

(١) جوزيف نسيم: العدوان الصليبى على مصر ص٢٢٣-٢٢٤، نقلاً عن ابن شاكر الكتبى: عيون التواريخ (مخطوط) جـ٢٠ لوحة ٢٨، وانظر أيضاً: ابن إبراهيم الحنبلى: شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ص٣٨٠.

(٢) ابن قزاوغلى: مرآة الزمان جـ٣ ق٢ ص٧٨١، النويرى: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٦٠، هابس ابرهارد: تاريخ الحروب الصليبية ص٣٨٠.

(٣) ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص٣٨، العينى: عقد الجمان جـ١ ص٢٤، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ٦ ص٣٧١.

(٤) ابن أيبك الدوادارى: كنز الدرر وجامع الغرر جـ٧ ص٣٨٢، المقريزى: المقفى الكبير جـ٢ ص٦٣١، ابن إبراهيم الحنبلى: شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ص٣٨٠.

د- إساءته لزوجة أبيه شجرة الدر وكانت لما وصل هو إلى القدس مضت هي إلى القاهرة فأرسل إليها يتهددها ويطالبها بالأموال والجواهر؛ فخافت منه وأرسلت إلى المماليك تحرضهم عليه[1] بعد أن تأكدت من تنكره لها وهي التي حفظت له الملك بعد وفاة أبيه السلطان نجم الدين أيوب وأرسلت إليه تستدعيه من حصن كيفا.

ويصور المؤرخ أبو شامة (ت/٦٦٥هـ) النهاية المروعة التي انتهى إليها أمر الصراع على السلطة بين المماليك وسلطانهم المعظم تورانشاه فيقول: "وأخبرني من شاهد قتله أنه ضرب أولاً فتلقى الضربة بالسيف بيده فجرحت، واختبط الناس وذلك بعد فراغهم من الأكل على السماط، فأظهر أن ذلك من بعض الحشيشية (الإسماعيلية)، فأشار بعضهم على الباقين بإتمام الأمر فيه وقالوا: بعد جرح الحية لا ينبغي إلا قتلها فركبوا ولبسوا السلاح وأحاطوا بخيمته وبرجه الخشبي لأنه كان في الصحراء بإزاء الفرنج - خذلهم الله - فدخل البرج خوفاً منهم فأمروا زراقاً بإحراق البرج فامتنع فضربت عنقه، ثم أمروا زراقاً آخر فرمى البرج بنفط فأحرقه، فخرج من بابه وناشدهم الله في الكف عنه والإقلاع عما نقموا عليه وطلب تخلية سبيله، فلم يجب إلى شيء من ذلك فدخل في البحر إلى أن وصل الماء إلى حلقه فرجع، فضربه البندقداري بالسيف فوقع في الماء، ثم ضربه بالسيف ضربة أخرى على عاتقه فنزل السيف من تحت إبط اليد الأخرى فوقع قطعتين، وكان قتله في أواخر المحرم يوم الاثنين[2] سنة ٦٤٨هـ/٢مايو سنة ١٢٥٠م.

---

(١) ابن قزاوغلي: مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٨٧٢، النويري: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٦٠، العيني: عقد الجمان جـ١ ص٢٤.

(٢) أبو شامة: الذيل على الروضتين ص١٨٥، وانظر أيضاً: ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص٣٨، ابن إبراهيم الحنبلي: شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص٣٨٠.

السلطانة شجرة الدر ٦٤٨هـ/١٢٥٠م

وبمقتل تورانشاه تداعت الدولة الأيوبية بمصر وأفلح المماليك فى القبض على زمام السلطة فى مصر، وأصبح لزاماً عليهم أن يحسموا الأمر وأن يقرروا، وكانت لديهم عدة خيارات صعبة منها:

أ- تتويج شجرة الدر سلطانة على مصر.

ب- تسليم السلطة فى مصر لأحد الملوك الأيوبيين فى الشام وعلى رأسهم الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب الذى سارع إلى الاستيلاء على دمشق وأصبح متلهفاً على التوجه إلى مصر لانتزاعها من أيدى المماليك وإعادتها إلى نفوذ البيت الأيوبى.

جـ- تعيين أحد كبار زعماء المماليك سلطاناً لمصر ومن هؤلاء عز الدين أيبك، وفارس الدين أقطاى.

وقد أسفر اجتماع أمراء المماليك من الصالحية والبحرية عن أن يقيموا شجرة الدر زوجة الملك الصالح فى المملكة وأن يكون عز الدين أيبك الجاشنكير الصالحى المعروف بالتركمانى أتابك العسكر، وحلفوا على ذلك وخطب لشجرة الدر على المنابر وضربت السكة باسمها، وكان نقشها عليها المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة الملك المنصور خليل، وكانت صورة علامتها على المناشير والتواقيع والدة خليل[1].

وكان على السلطانة شجرة الدر منذ توليها الحكم فى ٣ صفر ٦٤٨هـ/٧ مايو ١٢٥٠م أن تبادر إلى مواجهة الصعوبات التى كانت تعوق استقرارها فى هذا المنصب الخطير ومنها:

---

(١) أبو الفداء: المختصر فى أخبار البشر جـ٣ ص١٨٢، النويرى: نهاية الأرب فى فنون الأدب جـ٢٩ ص٣٦٢، السيوطى: حسن المحاضرة جـ٢ ص٣٦.

أ- إنهاء الوجود الصليبي في مصر

وقد بدأت المفاوضات بهذا الشأن بين المصريين والفرنج، وكان يمثل شجرة الدر والأمراء البحرية الأمير حسام الدين بن أبي علي لما كانوا يعرفونه عنه من رجحان عقله وحسن تقديره للأمور، واعتماد مولاهم الملك الصالح عليه، وبعد فترة من المباحثات أبرم الفريقان معاهدة الصلح فتم الاتفاق على:

- أن يرد الملك الفرنسي مدينة دمياط إلى المصريين.
- أن يطلق سراح المسلمين الذين في أسره.
- الا يقصد سواحل الإسلام مرة أخرى.
- أن يدفع مبلغ ثمانمائة ألف دينار نظير إخلاء سبيل الأسرى المسيحيين من جهة، وعوضاً عما أحدثوه بدمياط من النهب خلال إقامتهم بها من جهة أخرى.
- على الملك أن يدفع نصف الفدية قبل إطلاق سراحه، والنصف الآخر بعد مغادرته مصر ووصوله إلى عكا[1].

وفي يوم الأحد ٤ صفر سنة ٦٤٨هـ/٨ مايو ١٢٥٠م أقلعت السفن المسيحية من دمياط قاصدة عكا، تقل فلول القوات الصليبية، بعد أن أضنتها الهزائم، واستبدت بها الكوارث، حتى لم يبق منها إلا أقلية محطمة[2].

ب- المعارضة الأيوبية في الشام

وقد كان الأيوبيون هناك يشعرون بغضاضة كبيرة من جراء اجتراء المماليك في مصر على قتل تورانشاه، وتنصيبهم شجرة الدر سلطانة على عرش مصر التي كانت

---

(١) ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص٤٦٦-٤٦٨، جوزيف نسيم: العدوان الصليبي على مصر ٢٢٢-٢٢٣.

(٢) ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص٣٩، العيني: عقد الجمان جـ١ ص٢٩، ابن سباط: صدق الأخبار جـ١ ص٣٥١.

تعتبر واسطة العقد فى الدولة الأيوبية، ومن ثم قوبل طلب الأمراء المماليك إلى بعض نظرائهم فى الشام كى يعلنوا الولاء للسلطانة الجديدة بالرفض التام، بل إن الملك الأيوبى السعيد حسن بن العزيز عثمان بن العادل بن أيوب قد بادر بالاستيلاء على مدينة غزة ثم صار إلى قلعة الصبيبة وملكها، وثار الطواشى بدر الدين لؤلؤ الصالحى - نائب الكرك والشوبك - وركب إلى الشوبك وأخرج الملك المغيث عمر بن العادل بن الكامل من سجنه، وملَّكه الكرك والشوبك وأعمالها وحلَّف له الناس، وقام يدبر أمره لصغر سنه[1].

ومن ثم فقد شرع الأيوبيون فى الشام تحت قيادة الملك الناصر صلاح الدين يوسف - أكبر الملوك الأيوبيين سلطاناً - آنذاك - فى التوجه إلى مصر لانتزاعها من أيدى شجر الدر والمماليك الذين يؤيدونها، وكان الملك الناصر صلاح الدين نفسه يحلم فى الحصول على ما كان لجده الكبير الناصر صلاح الدين قاهر الصليبيين فى حطين، ومحرر القدس، لكن شتان ما بين الرجلين رغم اتفاقهما فى الاسم واللقب.

جـ- إقناع المصريين ورجال الدين

ولمواجهة هذه المشكلة أخذت شجرة الدر تتقرب إلى العامة وتسعى إلى إرضائهم بكافة الوسائل ذلك أن المصريين فى معظمهم قد أنفوا من أن تتولى امرأة حكم بلادهم، وكان القاضى تاج الدين ابن بنت الأعز الشافعى قد بايعها بالسلطنة على كره منه، كما أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام كتب مقامة يذكر الناس فيها بما يبتلى الله المسلمين إذا ولوا أمورهم امرأة، ويبدو أن ذلك كان وراء علامات الرفض التى ظهرت فى شكل اضطرابات عديدة حدثت فى القاهرة[2]، ولا يستبعد أن يكون بعض

---

(١) ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص٣٩، أبو الفداء: المختصر فى أخبار البشر جـ٣ ص١٨٢، المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك ق١ جـ٢ ص٢٢٦، العينى: عقد الجمان جـ١ ص٢٢.

(٢) السيوطى: حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة جـ٢ ص٣٦، ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ ص٢٨٦، أحمد مختار العبادى: فى التاريخ الأيوبى والمملوكى ص١١٨.

المماليك من أنصار فارس الدين أقطاى، فأخذ يحرض عليها من طرف خفى.

د- استرضاء الخلافة العباسية

حاولت شجرة الدر منذ توليها الحكم فى مصر استرضاء الخليفة العباسى المستعصم بالله فقد نسبت لقبها إليه فى النقش الذى على سكتها، غير أن ذلك لم ينل رضاء الخليفة الذى كان يعتبر الرئيس الروحى للمسلمين جميعا، ومن ثمة فإن موافقته على تعيين أحد الحكام المسلمين فى منصبه كانت تعتبر المصدر الوحيد لإكساب هذا الحاكم صفة الشرعية.

فلما أرسل أمراء المماليك فى مصر إليه فى بغداد يطلبون موافقته على تعيين شجرة الدر سلطانة على مصر، جاء جوابه إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأخبرونا حتى نسير إليكم رجلا[1] أما سمعتم فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة وأنكر عليهم بسبب ذلك غاية الإنكار[2].

وهكذا أيقنت شجرة الدر أن استمرارها فى الحكم أصبح مستحيلا فالأيوبيون فى الشام ثائرون والمصريون ورجال الدين غاضبون، والخليفة العباسى رافض، والمماليك لن يستمروا طويلا فى تأييدها، فرأت بحكمة وذكاء أن تتنازل عن العرش طواعية بعد فترة بلغت ثمانين يوما تقريبا[3].

---

(١) المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك جـ١ ق٢ ص٣٦٨، ستانلى لينبول: سيرة القاهرة ص١٧٥.

(٢) العينى: عقد الجمان جـ١ ص٣٤، ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور جـ١ ص٢٨٧.

(٣) ابن شاهين الملطى: نزهة الأساطين فيمن ولى مصر من السلاطين ص٦٨، قاسم عبده قاسم: الأيوبيون والمماليك ص١٢٩.

السلطان عز الدين أيبك ٦٤٨ : ٦٥٥هـ ١٢٥٠ : ١٢٥٧م

أحد مماليك الصالح نجم الدين أيوب، اشتراه فى حياة أبيه السلطان الكامل، وظل فى خدمة الصالح بعد أن أصبح سلطانا على مصر، وترقى فى أيامه حتى صار من كبار الأمراء الصالحية، وكان الصالح نجم الدين قد جعله خصيصا بخدمته، فكلفه بتولى وظيفة الجاشنكير (أى متذوق طعام الملك وشرابه)[١] وعلى هذا فهو لم ينتم مطلقا إلى المماليك البحرية.

ولما اختار أمراء المماليك شجرة الدر سلطانة عينوه أتابكا للعسكر أى قائدا عاما للجيش، فما أن عزمت شجرة الدر على اعتزال كرسى السلطنة حتى عينوه سلطانا مكانها وزوجوه بها فى التاسع والعشرين من ربيع الآخر سنة ٦٤٨هـ/الحادى والثلاثين من يوليو سنة ١٢٥٠م، وأبطلت السكة والخطبة التى كانت باسمها[٢].

ولم يكن اختيار أيبك من قبل الأمراء سلطانا؛ لأنه صاحب سن أو نفوذ أو كثرة أتباع، وإنما لكونه من أواسط الأمراء، وليس من أعيانهم، أى أنه سيكون سهل القياد يسهل صرفه أو التخلص منه إذا اقتضت الضرورة ذلك[٣].

أيا كان الأمر فقد كان على هذا السلطان أن يواجه عقبات عدة فى سبيل تدعيم أركان ملكه ومن أهمها:

---

(١) الذهبى: العبر فى خبر من غبر جـ٥ ٢٢٢، العينى: عقد الجمان جـ١ ص١٤١، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ٧ ص٤.

(٢) ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص٣٩، أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر جـ٣ ص١٨٣، ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الزهور جـ١ ص٢٨٧ وهو يذكر أن القاضى الشافعى تاج الدين ابن بنت الأعز هو الذى عقد قرانهما.

(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ٧ ص٥، عبد الله جمال الدين: من تاريخ الشرق الإسلامى فى العصر الحديث ص٢٣.

١- تهديد الأيوبيين فى الشام لمصر

فقد أدرك أيبك أن اعتراض الأيوبيين فى الشام على سلطنة شجرة الـــدر فـــى مصر، ورفضهم الاعتراف بها، لم يرجع لكونها امرأة فحسب، وإنما لأنهم يطمعـــون فى امتلاك مصر – أيا كان من يحكمها – وضمها إلى أملاكهم، وعلى هذا فإن تنـــازل شجرة الدر عن الحكم لم يكن ليثنى عزمهم عن المضى قدما صوب مصر التى طمعوا فيها حتى فى أثناء حياة الصالح نجم الدين أيوب نفسه.

ومن ثم فكر السلطان أيبك فى وسيلة قد تفلح فـــى تعطيلـــهم أو تضعـــف مـــن تصميمهم إلى حين، ففضل الموافقة على رأى أمراء المماليك فـــى تعييـــن الأشـــرف موسى بن الملك مسعود بن الملك الكامل الأيوبى – وكان آنذاك فى السادسة من عمره – سلطانا مشاركا له فى الحكم، فتم ذلك فى الثالث من جمادى الأولى سنة ٦٤٨هـــ، الثالث من سبتمبر سنة ١٢٥٠م[١] أى بعد خمسة أيام فقط من ولاية أيبك منفردا.

وهكذا أصبح لمصر سلطانان أحدهما مملوكى والآخر أيوبى، وضربت الســـكة باسمهما معا، وكذلك خطب لهما على المنابر معا غير أن الملك الأيوبى الصغير لـــم يكن له من الأمر شىء، فقد آلت الأمور كلها إلى يد أيبك[٢].

ويبدو أن أيبك كان يظن فعلا أن فى هذا الإجـــراء تهدئـــة لنفـــوس الأيوبييـــن الغاضبين فى الشام من ناحية أخرى، وتخفيفا لوطأة الطامعين فى عرش مصـــر مـــن كبار أمراء المماليك، وكانت أبعاد الرؤية عند أمراء المماليك مختلفة تماما عنها عنـــد أيبك، فهم لم يشعروا حتى الآن بمدى انتمائه إليهم، ومن ثمة فقد جاء اقتراحهم بتعييـــن

---

(١) ابن أيبك الدوادارى: كنز الدرر وجامع الغرر جـــ٨ ص١٣، ابن الوردى: تتمة المختصر جـــ٢ ص٢١٧، السيوطى: حسن المحاضرة جـــ٢ ص٣٧.

(٢) ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص٣٩، ابن دقماق: الجوهر الثمين جـــ٢ ص٤٧، ابن إياس: بدائـــع الزهور جـــ١ ص٢٨٩.

الأشرف موسى الأيوبى – وهو لم يزل بعد صبيا – فى منصب السلطان المشارك لأيبك راجعا لاعتبارات مهمة منها:

أ- التنغيص على أيبك وإحراجه، وإشعاره أنه ذو سلطة ناقصة.

ب- إخفاء مصالحهم فى الوصول إلى سدة الحكم.

جـ- التحضير لفرصة الانقضاض على السلطة فى الوقت المناسب.

وسرعان ما أقدم الملك الناصر الأيوبى صاحب الشام على مهاجمة مصر، فتأجل الصراع المحتوم بين السلطان أيبك والمماليك الذين تناسوا آنذاك خلافاتهم مع السلطان، وخرجوا لمقاتلة العدو المشترك، ونجحوا فعلا – بعد مشقة – فى إلحاق الهزيمة بالجيش الأيوبى عند العباسة بالشرقية فى العاشر من ذى القعدة سنة ٦٤٨هـ/الثالث من فبراير سنة ١٢٥١م[١].

ولم يكتف أيبك بهذا النصر الكبير، إذ سارع إلى الاستيلاء على غزة بجيش يقوده فارس الدين أقطاى كبير المماليك البحرية مما جعل نشوب الصراع بين الطرفين مرة أخرى أمرا وشيكا.

٣- تحركات الملك لويس التاسع

أدى استقرار لويس التاسع فى عكا بعد إطلاق سراحه من مصر إلى تعلق آمال القوى الصليبية فى سواحل الشام به، وغدا وجوده يشكل قوة يمكن أن تؤثر بصورة أو أخرى فى ميزان الصراع الدائر بين الأيوبيين والمماليك.

وقد رأى الملك الناصر الأيوبى قبل القيام بمحاولته فى الاستيلاء على مصر أن يرسل إلى الملك الصليبى لويس طالبا منه التحالف معه ضد المماليك فى مصر على أنه يسلمه نظير ذلك بيت المقدس[٢].

---

(١) أبو شامة: الذيل على الروضتين ص١٨٦، ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص٤٠، النويرى: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٤٢٠ – ص٤٢١.

(٢) المقريزى: السلوك جـ١ ق٢ ص٣٢٧، ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص٤٧٥.

أما لويس فقد رأى أنه من السياسة ألا يعطيه ردا حاسما على مطالبه خاصة أنه مازال فى مصر عدد كبير من الأسرى الصليبيين الذين لم يطلق سراحهم بعد، فقد كان يخشى أنه إذا اتفق مع الناصر ضد المماليك أن ينتقم هؤلاء من الأسرى الصليبيين، لذا اتخذ من الناصر موقف الحياد فى الوقت الذى أخذ يهدد فيه المماليك بقبول التحالف مع أعدائهم بالشام، لعله يفك بذلك الصليبيين الذين كانوا لا يزالون فى أسرهم[1].

وكان أيبك قد علم من قبل بأنباء المفاوضات التى دارت بين الطرفين فأرسل إلى لويس تهديدا بقتل أسرى الصليبيين المقيمين بمصر إن هو قام بأى عمل عدائى ضده، وفى الوقت نفسه أبدى له استعداده لتعديل معاهدة دمياط، والتنازل له عن نصف الفدية المقررة إن تحالف معه ضد الناصر الأيوبى غير أن الملك لويس فضل أن يقف على الحياد وأن يستغل نزاعهما لصالحه[2].

ولما كان المماليك يخشون فعلا سريان التحالف بين الملك الناصر الأيوبى والملك الصليبى لويس، فقد رأوا أن يجيبوا لويس إلى مطالبه حتى لا يحملوه على مناصرة عدوهم، وعلى هذا فقد أخلى المصريون فى جمادى الثانية سنة ٦٤٨هـ/سبتمبر ١٢٥٠م سبيل عدد كبير من الأسرى الفرنج من بينهم رئيس الاسبتارية غليوم دى شانتون، فوصلوا إلى عكا فى رجب سنة ٦٤٨هـ/أكتوبر سنة ١٢٥٠[3].

ولعل السلطان أيبك قد أدرك - بعد فوات الأوان - قيمة النصيحة الغالية التى أسداها الأمير حسام الدين أبو على الهذبانى كبير المفاوضين المصريين عندما أشار

---

(١) ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص٤٧٥، جوزيف نسيم: العدوان الصليبى على مصر ص٢٧٤.

(٢) أحمد العبادى: فى التاريخ الأيوبى والمملوكى ص١٢١ - ص١٢٢.

(٣) جوزيف نسيم: العدوان الصليبى على مصر ص٢٧٤- ص٢٧٥.

إلى أهمية التخلص من الملك لويس قبول إطلاق سراحه – بعد أن عادت دمياط إلى مصر – لأنه من ألد الأعداء، وقد اطلع على دخل الأمور في الدولة[1].

لم يعد بوسع الملك المعز الآن سوى أن يأخذ جانب الحذر التام في علاقته مع خصمه القابع في عكا متربصا لما قد تسفر عنه الأحداث في الصراع بين المماليك والأيوبيين، ولهذا فقد أمر المعز بهدم تحصينات مدينة دمياط وتخريبها حتى لا يتخذها الصليبيون –مرة أخرى– قاعدة ينفذون منها إلى داخل البلاد، فجرى تنفيذ ذلك في الثامن عشر من شعبان سنة ٦٤٨هـ/الخامس والعشرين من نوفمبر سنة ١٢٥٠م[2].

وبالطبع كشفت هذه الخطوة عن مدى تخوف المماليك من هجوم صليبي وشيك قد يقوم به الملك لويس التاسع على مصر ليسترد سمعته التي لحقها العار منذ بضعة شهور هناك، وبخاصة أنه قد استفاد الآن من أخطائه في الحملة السابقة فلم يعد جاهلا بجغرافية البلاد ولا بأحوالها السياسية والعسكرية، ولعله يستطيع تعويض النقص الذي اعترى جيشه بإمدادات صليبية جديدة وبمساندة فعالة من الملك الناصر الأيوبي الذي غدا موتورا من جهة المماليك في مصر كثيرا.

ويبدو أن تخوف المماليك من التحالف بين الملكين لويس والناصر قد استمر مسيطرا عليهم فعلى الرغم من تمكنهم من إلحاق الهزيمة بجيش الملك الناصر في مصر في ذي القعدة سنة ٦٤٨هـ – كما سبق القول إلا أنهم ظلوا يخشون مغبة التحالف بينه وبين الملك الصليبي، ولهذا سارعوا إلى اتخاذ خطوة خطيرة في التعامل مع الملك لويس إذ عرضوا عليه أن يسلموه بيت المقدس مقابل مناصرته لهم ووقوفه

---

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ٦ ص٣٦٨ ص٣٦٩، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب جـ٥ ص٢٤.

(٢) ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر جـ٨ ص٥١، المقريزي: السلوك جـ١ ق٢ ص٣٨٢، ابن سباط: صدق الأخبار جـ١ ص٣٥٧.

إلى جانبهم فى نزاعهم ضد الأيوبيين فى الشام، ومن ثمة فقد عقدت هدنة بين الطرفين مدتها خمسة عشر عاما تبدأ من أواخر المحرم سنة ٦٥٠هـ/مارس سنة ١٢٥٢م، كذلك تم الاتفاق على أن يتوجه الفرنج إلى يافا والمماليك إلى غزة فى ربيع الأول سنة ٦٥٠هـ/مايو سنة ١٢٥٢م ليردوا إلى الصليبيين بيت المقدس التى كانت آنذاك تحت حكم الناصر الأيوبى، وقد تعهد المماليك أيضا بإطلاق سراح باقى الأسرى المسيحيين الموجودين فى مصر، وأن يبعثوا إلى الملك لويس برؤوس الفرنج المعلقة على أسوار القاهرة[١].

وترتب على ذلك كله أن أرسل الملك الناصر جيشا كبيرا إلى غزة للاستيلاء عليها، والوقوف دون إتمام التحالف الجديد[٢] بين المماليك والصليبيين، ومن ثم فقد توقف المشروع بينهما إلى حين، غير أن الملك لويس استفاد من هذا الموقف أيضا، فقد نفذ المماليك ما تم الاتفاق عليه بشأن إطلاق الأسرى الصليبيين، وإعادة الرؤوس المعلقة، كما أتيح له احتلال مدينة يافا دون مقاومة تذكر، والقيام بعمارة استحكامات عكا وحيفا وقيسارية[٣].

وهكذا تجمد الصراع بين المماليك والأيوبيين حتى قدم إلى الملك الناصر الأيوبى فى دمشق فى صفر سنة ٦٥١هـ/إبريل سنة ١٢٥٣م الشيخ نجم الدين البادرائى رسول الخليفة العباسى المستعصم بالله ساعيا فى تصفية الخلاف بين

---

(١) ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص٤٧٦، جوزيف نسيم: العدوان الصليبى على مصر ص٢٧٧ ص٢٧٨.

(٢) ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص٤٢، ابن الوردى: تتمة المختصر جـ٢ ص١٨٨، ابن سباط: صدق الأخبار جـ١ ص٣٦١.

(٣) ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص٤٧٧، جوزيف نسيم: العدوان الصليبى على مصر ص٢٧٧ - ص٢٧٨.

الطرفين[1].

وقد تم الاتفاق على أن يكون للمماليك مصر وغزة وبيت المقدس وللأيوبيين ما يلى ذلك من عند نهر الأردن إلى أقصى شمالى الشام[2].

ويظهر من هذا الاتفاق المهم الذى قبله الطرفان أن الملك الناصر الأيوبى قد استجار بالخليفة العباسى لينقذه من تفاقم اثر التحالف الخطير بين المماليك والصليبيين[3] كما يظهر أيضا أن استجابة الخليفة جاءت مترتبة على ما أعلنه الملك المعز أيبك فى القاهرة من أن البلاد للخليفة العباسى المستعصم بالله، وأنه نائبه عليها[4].

أما الخليفة فكان يهدف من وراء ذلك إلى وقف التغلغل الصليبى بين المسلمين فى الشام من ناحية، وتوحيد جهود المسلمين فى مواجهة الزحف المغولى القادم من الشرق صوب بغداد وما يتلوها من بلاد الشام ومصر من ناحية أخرى.

على أية حال فقد ترتب على نجاح الوفاق السابق نتائج عدة مهمة منها:

أ- اعتراف الأيوبيين بشرعية حكم المماليك فى مصر وجنوبى الشام.

ب- فشل لويس التاسع فى إثارة الفتنة بين الطرفين المسلمين الأيوبيين والمماليك، وفوات غرضه بإضعافهما معا لصالح الصليبيين وحدهم[5] وقد ساعد ذلك الفشل على التعجيل بسفره عائدا إلى فرنسا فى ٤ ربيع الأول

---

(١) الذهبى: العبر فى خبر من غبر جـ٥ ص٢١٧، السبكى: طبقات الشافعية جـ٥ ص١١٣، العينى: عقد الجمان جـ١ ص٨٠.

(٢) أبو الفداء: المختصر فى أخبار البشر جـ٣ ص١٩١، النويرى: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٤٢٩، ابن سباط: صدق الأخبار جـ١ ص٣٦٦.

(٣) ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص٤٧٧.

(٤) المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك جـ١ ق٢ ص٣٧٠.

(٥) جوزيف نسيم: العدوان الصليبى على مصر ص٢٧٩.

سنة ٦٥٢هـ/٢٤ أبريل سنة ١٢٥٤م.

جـ- تفرغ المعز أيبك لمواجهة مشاكله الداخلية فى مصر التى ظلت تؤرقه منذ توليه منصب السلطنة فى مصر.

٣- ثورة العربان

أدى نجاح الفتح العربى لمصر على يد عمرو بن العاص إلى هجرة كثير من القبائل العربية من شبه جزيرة العرب إليها، وقد فضلت غالبية هذه القبائل العيش على أطراف الصحراء المتاخمة للأراضى الزراعية فى مناطق الشرقية والبحيرة والفيوم والصعيد، إلا أنها مع مرور الوقت شرعت فى امتهان الزراعة إلى جوار الرعى، كما حافظت على أداء دورها العسكرى فبرزت أهمية أبنائها كفرق متطوعة تشارك الجيش النظامى فى الدفاع عن البلاد ضد أعدائها والمغيرين عليها.

غير أن هذا الدور كان يتحول أحياناً إلى النقيض وبخاصة فى فترات ضعف الحكومة المركزية أو انشغالها عنهم، فلما كانت بداية العصر المملوكى، واشتغال الملك المعز بحرب الملك الناصر وتجريد الجيوش إلى جبهته – وعدم الالتفات إلى غير ذلك – تمكن العربان بهذه الأسباب من البلاد، وكثر شرهم، وزاد طغيانهم وبغيهم، وحصل لأهل البلاد منهم من أنواع الأذى ونهب الأموال والتعرض إلى الحريم، وأمثال ذلك، ما لا حصل من الفرنج أكثر منه[1].

ولم يكن هؤلاء العربان يرون فى المماليك أو حتى الأيوبيين الذين سبقوهم استحقاقاً لملك مصر ولهذا عمدوا إلى توحيد جماعاتهم تحت زعامة أحد شيوخها ويدعى حصن الدين بن ثعلب وكان ينتسب إلى نسل الإمام على بن أبى طالب، ويرى أنه أحق بالمُلك من الملك المعز فقد أثر عنه قوله: "أنا أحق بالملك من المماليك وقد

---

(١) النويرى: نهاية الأرب جـ٢ ص٤٢٧.

كفى أنا خدمنا بنى أيوب وهم خوارج خرجوا عن البلاد"[1].

ولم يكتف حصن الدين بن ثعلب بالسيطرة على الصعيد، وإنما زحف على الوجه البحرى ليستثير قبائل العربان هناك ضد سلطنة المماليك، وأخذ يتصل بالملك الناصر الأيوبى فى الشام يطلب مساعدته فى حربه ضد الملك المعز أيبك[2] غير أن الملك الناصر كان قد قبل الصلح مع الملك المعز بوساطة سفير الخليفة العباسى – كما سبق القول – فلم يعد بمقدوره فعل أى شىء.

وقد سارع الملك المعز فى مواجهة تفاقم خطر العربان إلى الاستعانة بالمماليك البحرية وزعيمهم أقطاى، الذى نجح فى القضاء على مركز الثورة فى أخميم وتابع مطاردته للعربان فى الصعيد ثم عاد إلى القاهرة بعد أن نهب أموالهم وأسر بعضهم وكان ضمن الأسرى ابن عم حصن بن ثعلب فشنق تحت القلعة[3].

وفى سنة ٦٥٣هـ/سنة ١٢٥٥م تجدد عصيان حصن بن ثعلب ببلاد الصعيد، ووافقه على رأيه الأمير عز الدين الأفرم، وهو إذ ذاك والى قوص وأعمالها، فتحيل المعز على حصن بن ثعلب حتى أنه أحضره واعتقله بالأسكندرية[4].

٤- تمرد المماليك البحرية

وأولئك كانوا يتحينون الفرص لإزاحة الملك المعز أيبك وإقصائه عن السلطة – كما سبق القول – لكنهم أجلوا ذلك انتظارا لما تسفر عنه المواجهة مع الملك الأيوبى.

ولما كان الملك المعز مدركا لحقيقة مواقفهم فقد قرر أن تكون المواجهة معهم

---

(١) المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك جـ١ ق٢ ص٢٨٦.

(٢) أحمد العبادى: فى التاريخ الأيوبى والمملوكى ص١٢٦، سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكى فى مصر والشام ص٣٢٤

(٣) ابن قزاوغلى: مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٩١، النويرى: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٤٢٩.

(٤) بيبرس المنصورى: التحفة الملوكية فى الدولة التركية ص٣٧، محمد جمال الدين سرور: دولة الظاهر بيبرس ص٢٢.

خطوة خطوة ولهذا شرع فى اتخاذ عدة إجراءات تدريجية ضدهم منها:

أ- إنشاء فرقة جديدة من المماليك أسماهم المماليك المعزية نسبة إليـــه، كذلـك اختار مملوكه سيف الدين قطز نائباً للسلطنة[1].

ب- إلقاء القبض على أمراء المماليك المعروفيـــن بميولـــهم إلـــى الأيوبييـن وسجنهم[2].

جـ- إخراج المماليك البحرية من ثكناتهم بالروضة[3].

د- تكليف المماليك البحرية بالمشاركة فى المواجهات العسكرية الخطيرة مثـــل حرب الأيوبيين فى الشام، ومطاردة العربان فى الوجه البحرى والقبلى.

ولم تؤد هذه الإجراءات – مع مرور الوقت – إلى إحـــراج موقـــف الممـــاليك البحرية وزعيمهم فارس الدين أقطاى الذى ازداد غروراً بنجاحه فـــي تقليـم أظـــافر العربان فاتخذ برعونة عدة إجراءات مضادة منها:

أ- تسلطه على شئون الدولة، وتدخله فى أدق أمور إدارتها وبخاصة النواحـــى المالية منها.

ب- اختصاص نفسه بحرس خاص، وموكب كبير حتى إن أتباعه أطلقوا عليـــه لفظ الملك الجواد.

ج- إظهار احتقاره للسلطان المعز، فصار لا يسميه فى مجالسه إلا أيبكاً[4].

---

(١) ابن دقماق: الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين جـ٢ ص٥٣، العينى: عقد الجمان جـ١ ص٧٩.

(٢) المقريزى: السلوك جـ١ ق٢ ص٣٧٠.

(٣) أحمد العبادى: فى التاريخ الأيوبى والمملوكى ص١٢٨.

(٤) النويرى: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٤٢٠، الذهبى: العبر جـ٥ ص٢١١، العينى: عقـد الجمـان جـ١ ص٨٠.

وإمعانا فى إظهار مدى ضعف المعز، وقلة حيلته فقد أخذ أقطاى وأتباعـه فـى مضايقة العامة فى القاهرة حتى ضج الناس بالشكوى من تعدى المماليك البحرية على أموالهم وبيوتهم وحريمهم وأولادهم(١).

وحاول السلطان المعز أيبك تفادى الصدام بأقطاى، وما يرتكبه أعوانه، فأقطعه ثغر الإسكندرية، لعله ينشغل به عن غيره مما يمنى به نفسه(٢).

غير أن أقطاى عاد ليفاجئه بما لم يكن يتوقعه، فأعلمه بأنه ينوى الزواج بابنـة صاحب حماة الأيوبى ولذلك ينبغى إخلاء قلعة الجبل - وكانت آنذاك مقـر الحكم - لتقيم فيها الأميرة الأيوبية(٣) وكانت قد انتقلت من حماة فى طريقها إلى دمشـق وفـهم أيبك الأبعاد الحقيقة الكامنة فى نفس أقطاى فشرع فى التخطيط لاغتياله، وتم لـه مـا أراد فى داخل القلعة، إذ لما استدعى أقطاى إلى القلعة توجه إليها دون احتياط فمـا أن ولج إلى داخلها حتى هاجمه المماليك المعزية بقيادة قطز فقتلوه بسيوفهم فى الثالث من شعبان سنة ٦٥٢هـ/التاسع والعشرين من سبتمبر سنة ١٢٥٤م(٤) وبمقتل أقطاى لـم يعد أمام أتباعه من المماليك البحرية سوى الفرار إلى الشام أو بلاد سـلاجقة الـروم، فكتب الملك المعز أيبك إلى الملك الناصر الأيوبى، وإلـى السـلطان عـلاء الديـن السلجوقى يحذرهم من استخدام المماليك البحرية(٥).

ولم يكتف المعز بذلك، فقد عمد إلى مصادرة أموال المماليك البحرية وأسر مـن

---

(١) أبو شامة: الذيل على الروضتين ص١٨٨، ابن دقماق: الجوهر الثمين جـ٢ ص٤٨.

(٢) ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص٤٢، بيبرس المنصورى: التحفة الملوكية ص٣٤.

(٣) ابن دقماق: الجوهر الثمين جـ٢ ص٥٣، العينى: عقد الجمان جـ١ ص٧٩.

(٤) أبو الفداء: المختصر فى أخبار البشر جـ٣ ص١٩٠، ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص٣٧٥، ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ ص٩١.

(٥) ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص٤٢، بيبرس المنصـورى: التحفـة الملوكيـة ص٣٤-ص٣٥، النويرى: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٤٣٢.

تبقى منهم ونفيه[1] ثم قبض على الأشرف موسى الأيوبى وسجنه ثم نفاه إلى دمشق[2].

وهكذا تصدع نفوذ المماليك البحرية فى مصر إلى حين، فى الوقت الذى ارتفع فيه شأن المماليك المعزية والصالحية.

٥- شجرة الدر

كانت العلاقة قد ساءت بين الملك المعز وزوجته شجرة الدر التى تسلطت عليه بشكل ظاهر سواء فيما يتعلق بإدارة شئون الدولة[3] أو علاقتها الخاصة به، فقد ألزمته بهجر زوجته الأولى أم ابنه على، ثم اعتراها الغضب الشديد لما علمت بنية الملك المعز فى الزواج بابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل[4] فقررت أمورا غاية فى الحرج منها:

- الاتصال بالملك الناصر الأيوبى، وإخباره بنيتها فى التخلص من الملك المعز، ثم الزواج به، وتمكينه من ملك مصر، فتخوف الناصر منها وحسب الأمر كله خدعة.

- الاتصال بالمماليك البحرية سواء الفارين منهم إلى الشام أو المقيمين منهم فى مصر، وتحريضهم على التخلص من الملك المعز.

---

(١) العينى: عقد الجمان جـ١ ص٨٧، ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ ص٩٢، وليم موبر: تاريخ دولة المماليك فى مصر ص٣٨.

(٢) أبو الفداء: المختصر فى أخبار البشر جـ٣ ص١٩٠، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ٧ ص٣٠، ابن شاهين الملطى: نزهة الأساطين فيمن ولى مصر من السلاطين ص٧١.

(٣) ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص٤٣، النويرى: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٤٥٧، ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ ص٢٩٥.

(٤) ابن دقماق: الجوهر الثمين جـ٢ ص٥٥، العينى: عقد الجمان جـ١ ص١٤٢، ابن سباط: صدق الأخبار جـ١ ص٣٦٨.

- تدبير قتل الملك المعز فى القلعة إذا أعيتها الحيل.

وأخيرا تمكنت شجرة الدر من اغتيال الملك المعز بواسطة خدامها الذين قتلوه فى الحمام فى الثالث والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٦٥٥هـ/العاشر من أبريل سنة ١٢٥٧م[١].

السلطان المنصور على بن أيبك ٦٥٥ : ٦٥٧هـ ١٢٥٧ : ١٢٥٩م

بذلت شجرة الدر محاولات عديدة للإفلات من الخطر الذى أحدق بها بعد إقدامها على قتل زوجها الملك أيبك ومن ذلك أنها أرسلت إصبع المعز وخاتمه إلى الأمير عز الدين سنجر الحلبى الكبير، وطلبت منه أن يقوم بالأمر، فلم يجسر على ذلك[٢] وتخوف من مغبة الأمر، وتركها تواجه مصيرها بما قدمت يداها.

ولما ذاع خبر قتل أيبك احتدم الصراع بين طائفتين من المماليك، الصالحية الذين يحبون شجرة الدر ويحترمونها ويحاولون حمايتها لأنها زوجة أستاذهم الصالح نجم الدين أيوب، والمعزية الذين غضبوا لمقتل أستاذهم أيبك على هذه الصورة البشعة[٣] وأخيرا سيطر المماليك المعزية على الموقف فاتفقوا على اختيار الأمير على بن الملك الصريع أيبك ليكون سلطانا خلفا لأبيه فى السادس والعشرين من ربيع الآخر سنة ٦٥٥هـ/الثالث عشر من أبريل سنة ١٢٥٧م، كما تم اختيار الأمير سيف الدين قطز نائبا للسلطنة[٤] ثم سلموا شجرة الدر إلى أم السلطان الجديد فأمرت جواريها بقتلها

---

(١) ابن أيبك الدوادارى: كنز الدرر وجامع الغرر جـ٨ ص٣١، الذهبى: العبر جـ٥ ص٢٢٢، ولوم موبر: تاريخ دولة المماليك فى مصر ص٣٨.

(٢) أبو الفداء: المختصر فى أخبار البشر جـ٣ ص١٩٢، العينى: عقد الجمان جـ١ ص١٤١، ابن سباط: صدق الأخبار جـ١ ص٣٧١.

(٣) العينى: عقد الجمان جـ١ ص١٤٣، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ٦ ص٣٧٧.

(٤) بيبرس المنصورى: مختار الأخبار ص١٠، أبو الفداء: المختصر فى أخبار البشر جـ٣ ص١٩٢، ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ ص٢٩٦ - ص٢٩٧.

بنفس الطريقة التي قتل بها الملك المعز، فانهال هؤلاء عليها ضرباً بالقباقيب حتى لفظت أنفاسها في ربيع الآخر سنة ٦٥٥هـ[١].

ولم يرض المماليك الصالحية عن ذلك، واتفقوا على اختيار الأمير علم الدين سنجر الحلبي أتابك العسكر ليكون سلطاناً، وحلفوا له، فنهض المعزية في مواجهتهم بقيادة نائب السلطنة الأمير سيف الدين قطز، فقبضوا على علم الدين سنجر، وسجنوه، وتمّ تعيين الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب مكانه[٢].

وفي الحقيقة لم يكن المنصور على صالحاً لتولي هذا المنصب الخطير في هذا التوقيت الحرج، فقد كان صبياً مراهقاً في الخامسة عشرة من عمره، يضيّع معظم وقته في التلهي بركوب الحمير والطواف بها داخل أسوار القلعة، وفي اللعب بالحمام مع الخدام[٣].

أما المماليك البحرية الموجودون بالشام آنذاك فقد ساءت علاقتهم بالملك الناصر الأيوبي بعد أن تيقنوا أنه لن يتوجه إلى الديار المصرية، أو يسير عسكره معهم إلى هناك، فقرروا أن يسيروا هم إلى الملك المغيث صاحب الكرك ليحرضوه على قصد مصر[٤].

---

(١) ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر جـ٨ ص٣٢ وهو يذكر أن وفاتها كانت في السادس عشر من ربيع الآخر على حين يذكر ابن إياس في بدائع الزهور جـ١ ص٢٩٥ أن وفاتها كانت في الخامس والعشرين من نفس الشهر.

(٢) ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص٤٤، أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر جـ٣ ص١٩٢، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٧ ص٤٢-ص٤٣.

(٣) بيبرس المنصوري: مختار الأخبار ص١٠، ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر جـ٨ ص٢٣، النويري: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٤٦٨.

(٤) ابن إبراهيم الحنبلي: شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص٣٨٣، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٧ ص٤٥.

وكانت كوامن الحقد قد تحركت فى نفوس المماليك البحرية لما آلت السلطة الحقيقية فى مصر إلى يد الأمير سيف الدين قطز المعزى، فقد كانوا يكرهونه لاشتراكه فى قتل زعيمهم فارس الدين أقطاى، ولكونه من المماليك المعزية، ولارتقائه إلى منصب نائب السلطنة فى وقت أخذوا هم فيه يهيمون على وجوههم فى الشام دون مأوى آمن، مترقبين غضب الملوك الأيوبيين فى الشام أو رضاهم.

أيا كان الأمر فقد أفلح المماليك البحرية فى تحريض صاحب الكرك، وأطمعوه فى انتزاع مصر لصالحه من أيدى قطز والمماليك المعزية، وساروا ضمن جيشه إلى هناك، فخرج إليهم المماليك المعزية، واشتبكوا معهم عند الصالحية فى الخامس والعشرين من ذى القعدة سنة ٦٥٥هـ/ الرابع من ديسمبر سنة ١٢٥٧م، فانهزم المماليك البحرية، ووقع بعضهم فى الأسر، وفر الباقون عائدين إلى الكرك[١].

وفى العام التالى عاود المماليك البحرية كرتهم، وخرج معهم فى هذه المرة الملك المغيث بنفسه، فالتقاهم قطز والمماليك المعزية عند الصالحية مرة ثانية فى الحادى والعشرين من ربيع الآخر سنة ٦٥٦هـ/السابع والعشرين من إبريل سنة ١٢٥٨م، فانهزم الملك المغيث ونهبت أمواله وأثقاله وعاد إلى الكرك على أسوأ حال، على حين فر المماليك البحرية إلى ناحية الطور حيث اتحدوا هناك مع الأكراد الفارين من بطش المغول[٢].

وقبيل تلك الأثناء بقليل كان المغول بقيادة هولاكو بن تولوى بن جنكيز خان قد نجحوا فى الاستيلاء على بغداد عاصمة الخلافة العباسية بعد مهاجمتها من الشرق

---

(١) أبو الفداء: المختصر فى أخبار البشر جـ٣ ص١٩٣، الذهبى: العبر فى خبر من عبر جـ٥ ص٢٢٠، ابن سباط: صدق الأخبار جـ١ ص٣٧٢.

(٢) المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك جـ١ ق٢ ص٤٠٤-ص٤٠٥، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ٧ ص٤٤ ص٤٥، ابن إبراهيم الحنبلى: شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ص٣٨٣.

والغرب فى السابع من صفر سنة ٦٥٦هـ/الثالث عشر من فبراير سنة ١٢٥٨م، ثم قتلوا الخليفة المستعصم بالله فى الرابع عشر من صفر من نفس السنة وأعفوا قبره[١].

ثم شرع المغول فى استكمال خطتهم التى رسمها الخاقان الأعظم منكو فاستولوا على أربل، وأطبقوا على بلاد الجزيرة ميافارقين، ماردين، نصيبين، ثم انحدروا - بعد عبور نهر الفرات - إلى الإغارة على منبج وتوجهوا إلى حلب، مثيرين أقصى حالات الذعر والهلع بين المسلمين فى تلك الأنحاء أما الملوك والأمراء فى تلك النواحى - وكان غالبيتهم من الأيوبيين- فقد شرعوا فى تقديم فروض الولاء والطاعة لهولاكو وجيشه، بعد أن خارت عزائمهم وانهارت قدرتهم عن المقاومة.

فلما استشعر الأمير سيف الدين قطز خطورة الحال وحاجة البلاد إلى سلطان قوى حازم، عزل الملك الصبى المنصور على بن أيبك، واستوى مكانه على العرش يوم السبت ٢٨ ذى القعدة سنة ٦٥٧هـ/السابع والعشرين من ديسمبر سنة ١٢٥٩م لعله يتمكن من دفع أذى المغول عن البلاد[٢].

ولقد شكل هذا الموقف الصعب اختبارا حقيقيا لنشأة الدولة المملوكية الفتية بعد أن شاعت أنباء التحالف المزمع عقدة بين المغول والصليبيين وعلى رأسهم البابا فى روما ضد المسلمين فى الأراضى المقدسة.

---

(١) ابن الفوطى: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة ص٣٢٧، ابن الوردى: تتمة المختصر فى أخبار البشر جـ٢ ص١٩٧، الديار بكرى: تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس جـ٢ ص٣٧٦.

(٢) أبو شامة: الذيل على الروضين ص٢٠٣، النويرى: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٤٦٩، ابن سباط: صدق الأخبار جـ١ ص٣٨١.

المبحث الثانى

المغول

يقسم علماء الأجناس البشرية السلالات الإنسانية إلى عناصر ثلاثة رئيسية هى القوقازى والزنجى والمغولى، وكان هذا الأخير منتشرا فى منغوليا والصين وكوريا وفى جنوبى شرق أسيا بعامة، وكان يعرف أيضا باسم السلالة الصفراء(١).

وتمتد هضبة منغوليا التى عاش فيها المغول منذ زمن بعيد فى أواسط أسيا ما بين جنوبى سيبيريا وشمالى التبت وغربى منشوريا وشرقى تركستان(٢) ويغلب على مناخها الصفة القارية فالمناخ هناك شديد القسوة يندر وجود نظير له فى منطقة أخرى فهو يبلغ النهايات العظمى فى الحرارة أو البرودة وفى جفافه الشديد، وكذلك فى قوة الرياح العاصفة(٣).

وقد انعكس أثر هذه البيئة القاسية على حياة المغول وتكوينهم الجسمى والنفسى، فالمغولى يتصف بتكوين جسمانى خاص يميزه عن غيره من الأجناس فهو يتسم بالقامة القصيرة أو المتوسطة والرأس العريض والجبهة المرتفعة كذلك كان للسحنة المغولية سمات خاصة، فالوجه عريض والبشرة سميكة، والأنف أفطس غائر فى الوجه، وعظام الوجنات نائتة، والعين منحرفة ذات جفن ثقيل، كما تميز المغول أيضا بالشفاه الغليظة والذقون الجرداء، والشعور الخشنة المسترسلة والسيقان القصيرة المعوجة والأجسام الممتلئة(٤).

---

(١) دولت صادق: جغرافية العالم ص٢٢.

(٢) جمال حمدان: أنماط من البيئات ص٥٤، مصطفى بدر: محنة الإسلام الكبرى ص٤٨.

(٣) يوسف فايد: جغرافية المناخ والنبات ص٢٣٧

(٤) D'ohsson: Histoire des monglos Tom. I P10.
محمد السيد غلاب: تطور الجنس البشرى ص٢٩٧، فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص٧، ص٢٥.

وفى الجانب النفسى كان المغول صدى للطبيعة القاسية من حولهم فنشأوا مقاتلين بالفطرة فى مواجهة هذه الطبيعة والأعداء المتربصين وحيوانات الصيد التى كانت تشكل أحد المصادر الرئيسية للغذاء عندهم، وكذلك تحلى المغول بالصبر، ولم يقتصر ذلك على تحملهم ألم الجوع فى وقت الجفاف، إذ كانوا يتحملون أيضا البرد الشديد والحر اللافح بعزيمة قوية[١].

واشتهر المغول أيضا بالطاعة المطلقة لساداتهم وقوادهم فقد دأبوا على تعظيمهم واجتناب خيانتهم فى القول والعمل[٢].

وعلى وجه العموم كان المغول يعتقدون فى أنفسهم التميز على سائر الأجناس، وربما قوى ذلك الاعتقاد لديهم كثرة انتصاراتهم، وتسابق الكثير من أبناء البلاد التى خضعت لهم إلى خدمتهم[٣].

مما سبق يتضح أن العنصر المغولى عنصر متميز له نشأة خاصة فى أواسط أسيا[٤] وبالتالى فهو لا يرتبط من ناحية الأصل بالأتراك الذين ينتمون إلى العنصر القوقازى ويختلفون فى كثير من صفاتهم الجسمية والنفسية عن المغول[٥].

حقا كانت هناك عوامل كثيرة أدت إلى التشابه بين المغول والأتراك منها التجاور المكانى والاشتراك فى بعض التقاليد البدوية وبعض المعتقدات الوثنية وبعض

---

(1) Howorth: History of the mongols vol 4. P. 81-82.

(٢) هارولد لامب: جنكيز خان إمبراطور الناس كلهم ص٢٨، إدوارد براون: تاريخ الأدب فى إيران ص٥٣٣.

(٣) الكاتب الصينى ف.يان: جنكيز خان سفاح الشعوب ص٩٦، هارولد لامب: جنكيز خان وجحافل المغول ص١٥١.

(٤) محمد عوض: سكان هذا الكوكب ص٣٩.

(٥) محمد السيد غلاب: تطور الجنس البشرى ص٢٥٣.

المفردات اللغوية[١] غير أن ذلك كله لا يثبت أن المغول والأتراك عنصر واحد كما تصور بعض المؤرخين[٢].

الأديان عند المغول:

لم يعرف المغول وهم شعب مغرق فى البداوة – فى بادئ الأمر – ديناً معيناً واضح المعالم، ويرجع ذلك إلى حياة العزلة التى عاشوها فى هضبة منغوليا القاريبة التى لم يفكر كثير من دعاة الأديان آنذاك فى اقتحام صحاريها، لما يحتويه ذلك من مخاطر جسيمة لا تؤمن عواقبها.

وأمام جبروت الطبيعة القاسية، وجفاف البيئة وفقرها التمس المغول قوة أكبر اعتقدوا أنها تحميهم من الأخطار المحدقة بهم أو تعود عليهم بالنفع فى أجسامهم وعقولهم، أو قد ترعى أبناءهم وحيواناتهم[٣] وعلى هذا فقد كان منهم من يسجدون للشمس عند طلوعها[٤] ومنهم منْ يعظمون النجوم ويعبدونها[٥] ومنهم من يعبدون النار[٦] كما كان منهم من يعبدون أرواح أجدادهم لاعتقادهم أن لها سلطاناً عظيماً على

---

(١) بارتولد: تاريخ الترك فى أسيا الوسطى ص١٦٣، فامبرى: تاريخ بخارى ص١٦١، لوبون: حضارة العرب ص١٧٨.

(٢) النسوى: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ص٣٩، القزوينى: آثار البلاد وأخبار العباد ص٥٨١، الرمزى: تلفيق الأخبار جـ١ ص٢٦.

(٣) مصطفى بدر: محنة الإسلام الكبرى ص٥٦.

(٤) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ جـ١٢ ص١٣٨، ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب جـ٥ ص٦٥.

(٥) القرمانى: أخبار الدول وأثار الأول فى التاريخ ص٢٨٣.

(٦) الديار بكرى: تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس جـ٢ ص٣٦٨، الكاتب الصينى ف.يان: جنكيزخان سفاح الشعوب ص٨٦.

حياتهم وعلى حياة أعقابهم أيضاً[1].

وقد أتاح هذا الاضطراب الدينى عند المغول الفرصة لتسلط الكهان والمشعوذين والسحرة من الشامان، فنشروا خرافاتهم وأساطيرهم، وأمعنوا فى ذلك كثيراً حتى أصبحت لهم مكانة خطيرة فى نفوس العامة والحكام من المغول[2].

وفى الجانب الآخر أدى اتصال المغول بالصينيين فى الشرق، والأتراك الأويغور فى الجنوب إلى انتشار البوذية بينهم[3] فقد نشط الدعاة البوذيون لترويج مذهبهم مستغلين ضعف المعتقدات الشامانية من جهة وخلو الساحة من دين سماوى من جهة ثانية، وتشوق المغول ورغبتهم فى التعرف على الأمور الدينية من جهة ثالثة.

وهكذا بدأ المغول ينتقلون من عبادة قوى الطبيعة إلى عبادة الأصنام البوذية التى صنعت فى الأصل كتذكار لبوذا ثم عبدها البوذيون زلفى، ثم نقلوا فكرهم هذا إلى غيرهم، ومن أولئك المغول[4].

---

(١) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص١٩١، إبراهيم العدوى: العرب والتتار ص٢٧.

(٢) رالف لنتون: شجرة الحضارة جـ٢ ص١٧٨، ادوارد بروى: تاريخ الحضارات العام جـ٣ ص٣٨١، والشامانية ديانة وثنية بدائية تقوم على أن العالم مؤلف من طبقات متعاقبة: المنطقة السماوية وهى مملكة النور ومقر النفوس الفاضلة، والعالم السفلى: وهو مقر الظلمات والأشرار، وتقوم بين الاثنين مساحة الأرض حيث يعيش بنو الإنسان، وتخضع السماء والأرض إلى كائن أعظم يقيم فى الطبقة العليا أو السماء المؤلهة، على حين تقيم عفاريت لا يحصى لهم عدد فى الأرض والمياه والجبال والينابيع، وهى أماكن مقدسة أحيطت بالإكرام منذ القدم، وتحتوى الشامانية على فكرة البعث والحساب، وبأن الناس سيسألون عما يفعلون ولكن بطريقة مختلفة، فالقاتل لا يخاف عقاب يوم القيامة بل يعتقد أن منزلته تزداد ارتفاعاً فى ذلك اليوم بازدياد عدد من قتلهم: انظر بارتولد: تاريخ الترك فى أسيا الوسطى ص١٨٦، ادوار بروى: تاريخ الحضارات العام جـ٣ ص٣٨٠.

(٣) بارتولد: تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى ص٥٤٢.

(٤) القرمانى: أخبار الدول وآثار الأول فى التاريخ ص٢٨٣، محمد ماهر حمادة: وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولى ص٦٥، وكان بوذا رجلاً حكيماً وفيلسوفاً متأملاً أدرك بفطنته وصفاء

وعن طريق قوافل التجارة التى انتشرت عبر الطرق التجارية من وإلى تركستان ثم إلى منغوليا أو الصين انتقلت إلى المغول أديان جديدة تختلف عن وثنية الشامانية وأصنام البوذية، فقد استطاع كل من المسيحية والإسلام أن ينفذ إلى المغول، على حين ظلت اليهودية على عزلتها فلم يلق المغول إليها بالاً[1]؛ لأنها لا تناسب بيئتهم ولا تكوينهم النفسى، كذلك أسفرت حركة الغزو المغولى منذ أيام جنكيزخان وخليفته أوكتاى والتى تتابعت شرقاً وغرباً فشملت الصين وتركستان وهضبة إيران فى آسيا، وامتدت إلى جنوبى روسيا، والمجر وبولندا فى أوربا عن تعميق اتصال المغول بالأديان الثلاثة: البوذية والمسيحية والإسلام حيث كانت الشعوب التى اختلطوا بها هناك تضم أهل الديانات الثلاث[2].

وعلى الرغم من افتقار هذه الأديان إلى قوة عسكرية تحميها فى مواجهة المغول العتاة إلا أنها نهضت لتكشف عن جوهرها فى الدعوة معتمدة على وسائلها الخاصة، ومن هنا نشب الصراع فيما بينها على احتواء المغول، وهذا هو ما عبر عنه أحد كبار المستشرقين حين قال: "وليس هناك فى تاريخ العالم نظير لذلك المشهد الغريب وتلك المعركة الحامية التى قامت بين البوذية والمسيحية والإسلام، فكل ديانة تنافس الأخرى لتكسب قلوب أولئك الفاتحين القساة الذين داسوا بأقدامهم رقاب أهل تلك الديانات العظيمة ذات الدعاة والمبشرين فى جميع الأقطار والأقاليم[3].

ذهنه ماهية الخلق، وقدرة الخالق الواحد، فبنى دعوته إلى الناس على هذا الإدراك، ودعاهم إلى التزام الخير واجتناب الشر، وحث أتباعه على قهر الغرائز ونبذ الشهوات فلم يكن بوذا يزعم الألوهية لنفسه أو ليدعى النبوة، غير أن أتباعه ومريديه قد زعموه - بعد وفاته - إلهاً واتخذوا من أفكاره وأنماط سلوكه آيات لتأكيد هذا الزعم.

(١) بارتولد: تاريخ الترك فى أسيا الوسطى ص٦٤.

(٢) أنور الجندى: الموسوعة الإسلامية العربية جـ٥ ص٢٢٣.

(٣) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص١٩٠.

ويستطرد المستشرق البريطانى قائلاً ولم يكن هناك بد من أن ينهض الإسلام من تحت أنقاض عظمته الأولى، وأطلال مجده التالد، فاستطاع بواسطة دعاته أن يجذب هؤلاء الفاتحين المتبربرين، ويحملهم على اعتناقه، ويرجع الفضل فى ذلك إلى نشاط الدعاة من المسلمين الذين كانوا يلاقون من الصعاب أشدها لمناهضة منافسين قويين (يعنى البوذية والمسيحية) كانا يحاولان إحراز قصب السبق فى ذلك المضمار[١].

هذا ولم تغفل الياسا الناحية الدينية عند المغول فقد تضمنت الإشارة إلى بعض القضايا الدينية ومنها:

أ- الاعتقاد بوجود إله واحد قاهر، يهب الملك لمن يشاء، ويسلبه ممن يشاء، وهو قوى جبار حسب معتقدهم الوثنى[٢].

ب- تعظيم جميع الملل والأديان من غير تعصب لملة أو أخرى[٣].

جـ- تعظيم رجال الدين على اختلاف دياناتهم بإعفائهم من أداء الواجبات الحكومية التى تُفرضُ على غيرهم[٤] ومن الضرائب المختلفة[٥] وقبول وساطتهم أحياناً فى أثناء عمليات الحصار أو الغزو[٦].

---

(١) المصدر السابق: نفس الصفحة.

(٢) جعفر خصباك: العراق فى عهد المغول الإيلخانيين ص١٨٧، عبد السلام فهمى: تاريخ الدولة المغولية فى إيران ص٣٤.

(٣) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص١، المقريزى: الخطط جـ٢ ص٢٢٠، السيد العرينى: المغول ص٦٣.

(٤) محمد موسى هنداوى: سعد الشيرازى ص٩٤، عبد السلام فهمى: تاريخ الدولة المغولية فى إيران ص٣٤.

(٥) براون: تاريخ الأدب فى إيران ص٥٦١، بارتولد: تركستان من الفتح إلى الغزو المغولى ص٣٣٣.

(٦) عطا ملك الجوينى: تاريخ جهانكشاى جـ١ ص١٢٨.

كانت إيران عندما تحركت جحافل جنكيزخان سنة ٦١٦هـ/سنة ١٢١٩م داخلة ضمن ممتلكات السلطان الخوارزمى علاء الدين (٥٩٦-٦١٧)هـ وعقب الانتصارات المتلاحقة التى أحرزها المغول، وسقوط كبرى المدن الإسلامية فى بلاد ما وراء النهر: أترار، بخارى، سمرقند عبرت قوات جنكيزخان نهر جيحون متجهة نحو خراسان[١] للإجهاز على الجزء الغربى من الدولة الخوارزمية وفتح جبهة جديدة للغزو والسلب.

ولم يتمكن السلطان جلال الدين منكبرتى الذى تولى الحكم بعد وفاة أبيه علاء الدين سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م من الصمود أمام المغول طويلاً فعلى الرغم من أنه كان قد انتصر عليهم فى سهل بيروان بالقرب من مدينة غزنة سنة ٦١٨هـ/سنة ١٢٢١م[٢] إلا أنه اضطر – نتيجة لاختلاف قواده وتنازعهم على توزيع الغنائم – إلى التقهقر إلى شط نهر السند سنة ٦١٨هـ سنة ١٢٢١م حيث فرَّ من هناك إلى بلاد الهند[٣].

ولما أصبحت الساحة خالية ممن يدافع عنها، فقد توالى سقوط المدن الإيرانية الواحدة تلو الأخرى فى أيدى المغول الذين أشاعوا من الرعب والهول ما لا مزيد عليه، فاضطربت شئون الرعية أشد الاضطراب[٤].

---

(١) عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام ص٣٦٦، السيد العرينى: المغول ص١٣٢.

(٢) النسوى: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ص١٥٤-ص١٥٥، بارتولد: تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى ص٦٢٢.

(٣) حافظ حمدى: الدولة الخوارزمية والمغول ص١٥٨، السيد العرينى: المغول ص١٣٥.

(٤) عطا ملك الجوينى: تاريخ جهانكشاى جـ١ ص١٣٨ ص١٣٩ ص١٤٦ ص١٧١، مصطفى بدر: محنة الإسلام الكبرى ص٨١-ص٨٢.

وعندما اعتلى أوكتاى بن جنكيزخان عرش المغول سنة ٦٢٦هـ/سنة ١٢٢٩م كلف القائد المغولى جور ماغون بالقضاء على السلطان الخوارزمى جلال الدين وتوطيد سلطة المغول على إيران وما حولها[١] فبادر القائد المغولى إلى إنجاز مهمته مستغلاً حالة الضعف التى اعترت السلطان الخوارزمى جلال الدين الذى لم يستفد من الدرس السابق فدخل فى صراع مرير مع جيرانه المسلمين حتى لقى جيشه هزيمة منكرة أمام جيش الأشرف الأيوبى وسلاجقة الروم[٢] فانتهى الأمر إلى فراره ثانية أمام المغول حيث قُتِل فى جبال الأكراد سنة ٦٢٨هـ/سنة ١٢٣١م[٣].

قلاع الإسماعيلية فى إيران

لم يبق أمام المغول لابتلاع الشرق الإسلامى سوى قلاع الإسماعيلية فى قوهستان وآلموت، والخلافة العباسية فى بغداد، وكلا القوتين لم يكن يملك من مقومات الصمود فى وجه المغول شيئاً ذا أهمية، فأما الإسماعيلية الذين كانوا يكنون العداء لأهل السنة والجماعة الذين كانوا يشكلون غالبية المسلمين فى الشرق الإسلامى - آنذاك - فقد بادر زعيمهم الحسن الثالث (ت/٦١٨هـ) إلى الاتصال سراً بجنكيزخان لإظهار العبودية وقبول الخضوع عندما توجه من تركستان قاصداً محاربة السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه فى سنة ٦١٦هـ فى الوقت الذى كان يتظاهر هو فيه بمحالفة الخوارزميين من جهة، والخليفة العباسى الناصر لدين الله (ت/٦٢٢هـ) من جهة أخرى[٤].

---

(١) رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ خلفاء جنكيزخان) ص٣٢، عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام ص٤٠٤.

(٢) ابن البيبى: تاريخ سلاجقة الروم ص٢٢١، السيد العرينى: المغول ص١٧٥.

(٣) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ جـ١٢ ص٢١٧، النسوى: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ص٣٨٢.

(٤) أحمد الساداتى: تاريخ الدولة الإسلامية بأسيا وحضارتها ص١٤٧، محمد السعيد جمال الدين: دولة الإسماعيلية فى إيران ص٢٣٠.

D'ohsson: Histoire des mongols tom 3. P. 174.

وفى سنة ٦٢٨هـ/سنة ١٢٣١م استغل الإسماعيلية فرصة الضعف الذى أصاب جيش السلطان الخوارزمى جلال الدين فراسلوا المغول حتى ينهضوا للقضاء على هذا السلطان المسلم أو السد الأخير فى غربى إيران[1].

وقد بدأت متاعب الإسماعيلية مع المغول سنة ٦٣٦هـ عندما أقدم بعض فدائيوهم على اغتيال قائد مغولى كبير يدعى (كلبلاد) فى أثناء نزوله ضيفاً على حاكم بخارى[2] كما اغتالوا أيضاً جغتاى القورجى الكبير، وهو مغولى ينسب إلى قوم (أولات) من أقارب القائد المغولى (يوزرجين) نوين[3].

وقد تركت هاتان الحادثتان أثراً سيئاً فى نفوس المغول وبخاصة قادتهم إذ إن هذا الاجتراء على القادة المغول بهذه الصورة السافرة، إنما يقوض حالة الرعب والهلع التى عول المغول على نشرها بين خصومهم، والتى كانت سلاحاً لا يقل أهمية عند المغول عن المعارك الحربية ذاتها، كذلك اعتبر هذا الاجتراء تحريضاً للآخرين من الذين عانوا محنة الغزو المدمر كى يقوموا بنفس العمل انتقاماً لما أصابهم على أيدى المغول.

ولم يجد الإسماعيلية مناصاً فى مواجهة هذا التحول من ضرورة الاستعانة بقوى كبيرة، فأرسلوا فى نفس السنة من آلموت رسولين إلى ملكى انجلترا وفرنسا يسألونهما العون على المغول، ويستشهدون بما يجرى من دمار على أيدى المغول فى أوربا الشرقية[4].

---

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ جـ١٢ ص٤٩٦، السبكى: طبقات الشافعية جـ١ ص٣٤١، ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص٥٢٤.

(٢) القزوينى: آثار البلاد وأخبار العباد ص٣٠٢، عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام ص٤٢٨.

(٣) رشيد الدين: تاريخ جنكيزخان ورقة ١٤٥أ (مخطوط).

(٤) اربرى: تراث فارس ص٤٣٥، ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص٤٣٧، أحمد شلبى: موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية جـ٧ ص٧٥١.

ولما تولى منكوخان حفيد جنكيزخان عرش المغول سنة ٦٤٨هـ سنة ١٢٥٠م شرع فى التفكير فى إنفاذ حملة كبيرة تجاه الغرب لإزالة قلاع الإسماعيلية، وتبديد شملهم، فكلف أخاه هولاكو بقيادة هذه الحملة التى خرجت من قراقورم فى سنة ٦٥٠هـ[١].

ويمكن إيجاز أهم الدوافع التى تطلبت غزو المغول لقلاع الإسماعيلية فى:

أ- شكوى القائد المغولى بايجو الذى أرسله منكوخان على رأس جيش جرار للمحافظة على إيران وما حولها، فلما بلغ مكانه أرسل يشكو إليه الإسماعيلية وخليفة بغداد[٢].

ب- شكوى أهل السنة فى قزوين، وكانوا أقرب أهل السنة مجاورة لهم من تسلط الإسماعيلية عليهم، وقد نقل هذه الشكوى إلى منكوخان القاضى شمس الدين أحمد الكافى القزوينى الذى ذهب إلى منكو وطلب منه أن يضع حداً لشرهم، وأن يخلص الناس من فسادهم[٣].

ج- تأمين خطوط مواصلات الجيوش المغولية إذ إن موقع قلاع الإسماعيلية سواء فى قوهستان أو آلموت وما حولها كان يشكل تهديداً خطيراً فى ظهر القوات المغولية المتجهة غرباً[٤].

د- ما ارتكبه الإسماعيلية من أخطاء فادحة، منها اغتيال بعض قواد المغول، والاتصال بملوك غربى أوربا طلباً لعونهم ضد المغول كما سبق القول.

---

(١) رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ خلفاء جنكيز خان) ص٢٢٠، عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام ص٤٢١.

(٢) البناكتى: روضة أولى الألباب ص٤١٣، برنارد لويس: الحشاشون ص١٦٦.

(٣) الجوزجانى: طبقات ناصرى ص٤١٣-ص٤١٤، وانظر أيضاً:
Boyle: History of Iran vol 5. P. 480.

(4) Schneider: Mediaeval Ressearches vol I. P. 112.

وقد تمكن هولاكو فعلاً من تدمير قلاع الإسماعيلية سنة ٦٥٤هـ، وقتل إمامهم ركن الدين خورشاه، وإحراق مكتبتهم الشهيرة في ألموت، وتوجه بقواته إلى مدينة همذان في سنة ٦٥٥هـ متأهباً للانقضاض من هناك على بغداد عاصمة الخلافة العباسية.

الخلافة العباسية

لم تكن الخلافة العباسية أحسن حالاً من الدولة الخوارزمية عند هجوم المغول على الشرق الإسلامي وترويعه في مطلع القرن السابع الهجري، فالخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٥-٦٢٢هـ) لم يفكر - مع طول فترة حكمه - في تكوين جيش قوى منظم يعيد للخلافة العباسية هيبتها، ويرد عنها كيد الطامعين فيها، ويؤازر المسلمين في جهادهم ضد أعدائهم المتربصين بهم من الصليبيين والمغول.

وقد اعتمد هذا الخليفة على سياسة تفريق القوى المحيطة به، وذلك بتحريضها ضد بعضها، حتى يضعف من قدراتها العسكرية ويظل هو بمأمن من تسلطها عليه، ومن ذلك أنه حرّض الخوارزميين على التخلص من السلاجقة، فلما فرغوا منهم في سنة ٥٩٠هـ طالبوه بنفس المزايا التي كان يتمتع بها السلاجقة في بغداد ومنها الخطبة والسكة ودار السلطنة[١] فشرع في تأليب القوى الأخرى عليهم ليحقق نفس الغرض، ومن أولئك القراخطاي والغوريون والإسماعيلية وأتابكة فارس وأذربيجان[٢].

وقد بذل الخوارزميون جهداً كبيراً استنفذ كل طاقاتهم في محاربة تلك القوى،

---

(١) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص٤٩-ص٥٠، براون: تاريخ الأدب في إيران ص٥٧٨، فؤاد الصياد: المغول في التاريخ ص٧٠-ص٧١.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ١٢ ص٤١، حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول ص٣٧.

ونجحوا فعلاً فى التخلص منها، ثم اتجهوا غرباً إلى بغداد عاصمة الخلافة فى سنة ٦١٤هـ لمعاقبة الخليفة الناصر على ما فعله ضدهم، غير أن المغول كانوا قد ظهروا فى أقصى الشرق واجتاحوا الصين الشمالية ودخلوا عاصمتها بكين سنة ٦١٢هـ كما سبق القول – ثم اتجهوا غرباً صوب تركستان وبلاد ما وراء النهر، فاضطر الخوارزميون إلى التقهقر من ناحية بغداد، وعادوا لتأمين حدودهم الشرقية والشمالية بعد أن أنهكت قواهم وضعفت قدراتهم بفعل العواصف الثلجية التى أصابت جيوشهم عند مدينة همذان الإيرانية.

ولما سقطت الدولة الخوارزمية سنة ٦١٧هـ لم يجد المغول أدنى مقاومة حتى إن طلائعهم باتت تهدد بغداد نفسها، وحينذاك دخل الوزير ابن القمى على الخليفة الناصر مستصرخاً "يا مولانا إن التتار (المغول) قد ملكت البلاد، وقتلت المسلمين، فقال له الناصر: "دعنى إنى فى شىء أهم من ذلك، طيرتى البلقاء لى ثلاثة أيام ما رأيتها"[(١)].

أما عن استعدادات الخليفة من الناحية العسكرية فهو أمر آخر يدعو إلى الأسف، فقد حكى مظفر الدين كوكبرى صاحب مدينة أربل التابعة للخلافة العباسية آنذاك، قال: "لما أرسل إلىّ الخليفة فى معنى قصد المغول قلت له: إن العدو قوى وليس عندى من العسكر ما ألقاه به، فإن اجتمع عندى عشرة آلاف فارس استنقذت به ما أخذوا من البلاد، فأمرنى بالمسير، ووعدنى بوصول العسكر؛ فلما سرت لم يحضر عندى سوى عدد لم يبلغوا ثمانمائة طواشى، فأقمت وما رأيت أن أغرر بنفسى وبالمسلمين[(٢)].

---

(١) ابن حماد الموصلى: روضة الأعيان ورقة (١٤٠) مخطوط، ابن الساعى: تاريخ الخلفاء العباسيين ص١٣٧، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ٦ ص٢٦٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ جـ١٢ ص٣٧٩، ابن واصل: مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب جـ٤ ص٤٩-ص٥٠، القزاز: الحياة السياسية فى العراق فى عهد السيطرة المغولية ص٧٣.

وعلى هذا، فإنه لا ينبغى أن تلقى التبعة كلها على السلطان الخوارزمى علاء الدين محمد (ت/٦١٧هـ) وحده، فهذا الخليفة يتحمل معه الجزء الأكبر فيما أصاب المسلمين من بلاء وشرور على أيدى المغول.

وفى الحقيقة كانت الفترة منذ عودة جنكيزخان إلى منغوليا سنة ٦٢١هـ إلى سنة ٦٢٨هـ وهى السنة التى وصل فيها القائد المغولى جورماغون إلى غربى إيران بهدف القضاء على الخوارزميين فرصة نادرة للمسلمين كى يلتقطوا أنفاسهم ويوحدوا جهودهم فى مواجهة الخطر الداهم، غير أنهم كالعادة انصرفوا إلى التنازع فيما بينهم حتى إذا ما عاد المغول من جديد لم يجدوا من يتصدى لهم، وعلى هذا فقد سقط السلطان جلال الدين خوارزمشاه المنهوك القوى سريعاً تحت ضرباتهم، وانفتح الباب على مصراعيه إلى بغداد وغيرها من المدن الإسلامية المجاورة فى أرض الجزيرة وبلاد سلاجقة الروم وشمالى الشام، فأصبحت كل تلك المناطق فريسة سهلة فى أيدى المغول.

وقد عمل الخليفة العباسى المستنصر بالله (٦٢٣-٦٤٠)هـ على مدافعة الهجمات المتتالية التى كان المغول يقومون بها على فترات متقطعة على بغداد وما حولها من المدن التابعة للخلافة ومنها أربل ودقوقا وشهر زود(١) وقد ساعده فى ذلك انشغال المغول فى تلك الأثناء بتدعيم سيطرتهم على الشمال الغربى لإيران من جهة وبسط سلطانهم على بلاد الكرج والأرمن وسلاجقة الروم من جهة ثانية، وانهماك جيوشهم الرئيسية فى القتال على جبهات متعددة كالصين وروسيا وأوربا الشرقية من جهة ثالثة، ومن ثمة فإن إغارتهم على بغداد وما حولها كانت بهدف السلب والنهب واختبار مدى قوة الدفاعات حول هذه المدن.

---

(١) ابن الفوطى: الحوادث الجامعة ص٩٩، ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب جـ٥ ص١٢٩.

وفى سنة ٦٤٠هـ آل منصب الخلافة إلى المستعصم بالله بن المستنصر، فاختار لمنصب الوزارة محمد بن العلقمى خلفاً للوزير السابق ابن الناقد[١] وكلاهما من كبار رجالات الشيعة الإثنى عشرية فى هذا الوقت.

وقد شهدت بغداد فى سنة ٦٤٣هـ أول هجوم مغولى كبير عليها فخرجت عساكر الخلافة لمواجهة هذا الخطر، غير أن المغول أشعلوا نيران معسكرهم ليلاً ورحلوا عائدين[٢] كعادتهم عند الانسحاب المنظم.

ويظهر أن هذا الحدث قد ترك أثراً واضحاً عند الخلافة العباسية، فقد وصل رسولها فى العام التالى مباشرة إلى قراقورم عاصمة المغول فى منغوليا؛ ليشارك فى حضور القوريلتاى [المؤتمر المغولى العام الذى يختار فيه الخان الأعظم الجديد] الذى كان على وشك إعلان تتويج كيوك بن أوكتاى بن جنكيزخان خاقاناً أعظم للمغول، وفى البداية أحسن كيوك استقبال سفير الخليفة – الذى كان محملاً بهدايا تليق بمقام الخاقان – وأكرمه ومنحه مرسوماً ملكياً، إلا أنه عاد واسترده منه، وحمّله لوماً وشتماً للخليفة بسبب شكوى جاءته من شيرامون بن جور ماغون قائد المغول العاملين فى غربى إيران[٣].

وقد أسفر هذا الشعور العدائى الذى أعلنه الخان الأعظم كيوك ضد رسول الخلافة العباسية عن حملة عسكرية ضخمة تحركت صوب الغرب فى اتجاه بغداد، وعلى رأسها القائد المغولى ايلجيغداى – وهو مسيحى نسطورى – غير أن الأقدار لم

---

(١) ابن طباطبا: الفخرى فى الآداب السلطانية ص٢٧٠، الساعدى: مؤيد الدين بن العلقمى ص٦٦.

(٢) ابن العبرى: تاريخ الزمان ص٢٨٩، النويرى: نهاية الأرب جـ٢٧ ص٣٤٨، ابن سباط: صدق الأخبار جـ١ ص٣٣٥.

(٣) الجوينى: تاريخ جهانكشاى جـ١ ص٢٣٦-ص٢٣٧، رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ خلفاء جنكيزخان) ص١٨٤، براون: تاريخ الأدب فى إيران ص٥٧٤.

تمهل كيوك نفسه طويلاً فوافاه أجله سريعاً سنة ٦٤٦هـ، وقُتِلَ قائد الحملة على يد مغول القبجاق فتأجل المشروع إلى حين[١].

وفى أيام منكوقا آن الخان الأعظم المغولى (٦٤٨-٦٥٧)هـ شرع المغول فى تجهيز الحملة الضخمة التى أنيط بها تدمير قلاع الإسماعيلية وإسقاط الخلافة العباسية فى بغداد والاستيلاء على ما يليها حتى حدود مصر، وكانت مدفوعة بعوامل عديدة منها:

أ- شكوى القائد المغولى بايجو من الخلافة العباسية، إضافة إلى قلاع الإسماعيلية كما سبق القول.

ب- الضغط المسيحى من هيتون Hayton ملك أرمينيا الصغرى الذى سافر إلى قراقورم بعد عودة أخيه[٢] من هناك وعقد معاهدة مع منكوخان ساهم الأرمن بموجبها فى حصار بغداد وفى مهاجمة بعض بلاد الشام فيما بعد تحت قيادة المغول[٣].

جـ- اطراد النزعة التوسعية عند المغول والرغبة الجامحة فى الاستيلاء على مناطق جديدة لا تملك مقومات الصمود العسكرى ضدهم.

د- الطموح الشخصى لهولاكو شقيق الخان الأعظم منكو والرغبة فى تكوين مملكة مستقرة كتلك التى كانت لأبناء عمهما جوجى بن جنكيزخان فى جنوبى روسيا.

---

(١) بارتولد: تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى ص٦٧٧، براون: تاريخ الأدب فى إيران ص٥٧٤، سعد الغامدى: سقوط الدولة العباسية ص٢٤٩.

(٢) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص١٩٢، حسن إبراهيم: انتشار الإسلام بين المغول والتتار ص٢٨، جوزيف نسيم: العدوان الصليبى على الشام ص٢٨٥.

(٣) استارجيان: تاريخ الأمة الأرمينية ص٢٢٩، انطوان خانجى: مختصر تواريخ الأرمن ص٢٣٩.

أيا كان الأمر فقد تحركت جحافل المغول لتنفيذ المهمة، وتكامل وصول جيش هولاكو إلى شرقى بغداد فى الثانى من المحرم سنة ٦٥٦هـ ثم قدم جيش مغولى آخر من جهة بلاد الروم يقوده بايجونوين فعبر نهر دجلة من ناحية الموصل، فدحر جيش الخلافة الضئيل عند نهر بشير ثم انطلق إلى غربى بغداد حيث أحكم الحصار حولها استعداداً لاقتحامها[١] وقد شرعوا فى مهاجمة الأسوار فى الثانى والعشرين من المحرم سنة ٦٥٦هـ الموافق ٣٠ يناير ١٢٥٨[٢].

وكان هولاكو قبل حصار بغداد بعدة شهور قد أرسل من همذان فى العاشر من رمضان سنة ٦٥٥هـ كتاباً إلى الخليفة المستعصم بالله يهدده ويقول له: "لقد أرسلنا إليك رسانا وقت فتح قلاع الملاحدة وطلبنا مدداً من الجند، ولكنك أظهرت الطاعة، ولم تبعث الجند، وكان آية الطاعة والاتحاد أن تمدنا بالجيش عند مسيرنا إلى الطغاة، فلم ترسل إلينا الجند والتمست العذر.

ولا بد أنه قد بلغ سمعك على لسان الخاص والعام ما حدث للعالم على أيدى الجيوش المغولية منذ جنكيزخان حتى اليوم، وعلمت بالذل الذى حاق بأسر الخوارزمية والسلجوقية، وملوك الديالمة والأتابكة، وغيرهم ممن كانوا أرباب العظمة وأصحاب الشوكة، وذلك بحول الله القديم الدائم، ومع ذلك لم يغلق باب بغداد فى وجه أى طائفة من تلك الطوائف التى تولت السيادة هنا، فكيف يغلق هذا الباب فى وجوهنا رغم ما لنا من قدرة وسلطان؟!

وقد نصحناك من قبل، والآن نقول لك: تجنب الحقد والخصام والضغينة، ولا تحاول أن تقف فى سبيلنا؛ لأنك ستتعب نفسك عبثاً ومع ذلك فقد مضى ما مضى،

---

(١) ابن الفوطى: الحوادث الجامعة ص٣٢٤، رشيد الدين: جامع التواريخ م٢ جـ١ ص٢٨٥، مصطفى بدر: محنة الإسلام الكبرى ص١٣٢.

(٢) رشيد الدين: جامع التواريخ م٢ جـ١ ص٢٨٦، فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص٢٦١.

وعليك أن تهدم الحصون، وتطم الخنادق وتسلم ابنك المملكة ثم تتوجه لمقابلتنا، وإذا كنت لا تريد ذلك، فأرسل إلينا الوزير وسليمان شاه والدوادار ليوصلوا رسالتنا إليك بغير زيادة ولا نقصان، فإذا أطعت أمرنا فلا حقد ولا ضغينة، وسنبقى لك على دولتك وجيشك ورعيتك، وأما إذا لم تنتصح، وسلكت طريق الخلاف والجدل، فأعد جيشك وعين ساحة القتال؛ فإننا مستعدون لمحاربتك، واعلم أننى إذا غضبت عليك، وقدت الجيش إلى بغداد، فسوف لا تنجو منى ولو صعدت إلى السماء أو اختفيت فى باطن الأرض، فإذا أردت أن تحفظ رأسك وأسرتك فاستمع لنصحى بمسمع العقل والذكاء وإلا فسأرى كيف تكون إرادة الله[1].

ولم يجد الخليفة حلاً عملياً فى مواجهة هذا التهديد السافر، وكيف له أن يجد وقد شغل نفسه عن أمور دولته وعن المسلمين وعن الاستفادة من التجارب العملية الماثلة للعيان بأمور ثانوية، فهولاكو كان قد اجتاز نهر جيحون منذ عامين تقريباً، وأخذ الملوك والأمراء فى إيران وما حولها يهرعون إليه، حتى إن قوات من فارس ويزد وكرمان كانت تشارك فى حصار قلاع الإسماعيلية استجابة لطلب هولاكو[2] والخليفة تارك الأمور تجرى كيفما اتفق، فإذا نبه إلى ما ينبغى أن يفعله فى أمر المغول إما بالمداراة والدخول فى طاعتهم وتوخى مرضاتهم أو تجييش العساكر وملتقاهم بتخوم خراسان قبل تمكنهم واستيلائهم على العراق كان يقول "بغداد تكفينى ولا يستكثرونها على إذا تنازلت لهم عن باقى البلاد ولا يهجمون علىّ، وأنا بها وهى بيتى ودار مقامى[3].

---

(١) البناكتى: روضة أولى الألباب ص٤١٦، محمد ماهر حمادة: وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولى ص٣٤٥-ص٣٤٦.

(2) Bolye: History of Iran vol 5. P. 481.

وانظر أيضاً: مصطفى بدر: محنة الإسلام الكبرى ص١١٨، والسيد العرينى: المغول ص٢١٣.

(٣) ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول ص٤٤٥، الصدفى: تاريخ دول الإسلام جـ١ ص٢٠٠، عباس إقبال: تاريخ مفصل إيران جـ١ ص١٧٩.

وكان من الطبيعى أن يؤدى هذا الفهم الضيق إلى ضياع الخلافة العباسية والخليفة المستعصم بالله معاً، فقد جاء استسلامه وخروجه إلى معسكر هولاكو إعلاناً نهائياً بسقوط بغداد ووضع المسلمين فى الشرق الإسلامى تحت رحمة هولاكو وأعوانه ومستشاريه.

وفى يوم الأربعاء ١٤ صفر سنة ٦٥٦هـ أمر هولاكو بقتل الخليفة وتعقب أفراد الأسرة العباسية وقتلهم جميعاً[١] فلم يفلت منهم إلا القليل.

وهكذا تحولت بغداد التى ظلت عاصمة الخلافة الإسلامية خمسة قرون إلى مدينة ثانوية تابعة للايلخانية المغولية فى إيران والتى اتخذت من مدينة مراغة عاصمة لها[٢] وبدأ فصل جديد من الصراع المتواصل بين المغول والمماليك الذين أنيط بهم واجب الدفاع عن الأمة الإسلامية فى هذه الفترة الحرجة من تاريخها.

---

(١) مصطفى بدر: محنة الإسلام الكبرى ص١٤٦.

(٢) ياقوت: معجم البلدان جـ٥ ص٩٣، القزوينى: أثار البلاد وأخبار العباد ص٥٦٢، الحميرى: الروض المعطار ص٥٣٥، وفيهم أن مراغة من أكبر مدن أذربيجان وتقع على مسافة ٧٠ ميلاً جنوبى تبريز، وكانت قد تعرضت لهجوم المغول، سنة ٦١٨هـ.

المظفر قطز وعين جالوت ٦٥٨هـ

تمكن الأمير قطز المعزى من الاستيلاء على السلطة فى مصر – كما سبق القول – وشرع فى الاهتمام بأمر الجند والاستعداد للجهاد وأرسل إلى الملك الناصر الأيوبى سلطان الشام يطلب منه الاتفاق، واجتماع الكلمة للمناصرة على العدو، وأن يكونا يداً واحدة على حرب المغول فحلف له على ذلك[١].

ولم يكتف قطز بذلك، فقد راسل الملك الأشرف مظفر الدين موسى صاحب حمص وكان قد عاد لتوه من جهة هولاكو الذى كان مقيماً آنذاك فى مدينة حلب بعد سقوطها فى أيدى المغول فى ذى الحجة سنة ٦٥٧هـ/نوفمبر سنة ١٢٥٠م[٢] ففوض إليه قطز نيابة السلطنة بالشام أجمع وحلب وغير ذلك فقبل الأشرف موسى رسالة قطز، ووعد رسوله أنه إذا حضر المصاف مع المغول أنهزم بهم عند لقاء المسلمين، أما الملك السعيد الأيوبى وكان موافقاً للمغول منذ خلصوه من سجن الملك الناصر له فى حصن البيرة على شط الفرات، حتى إن هولاكو قد أعطاه فرماناً بملكية قلعتين على مقربة من دمشق هما الصُبيبة وبانياس فإنه سبَّ رسول قطز، وقال له عن قطز "من هو الذى يوافق هذا الصبى أو يدخل فى طاعته أو ينضم إليه"[٣].

أما المماليك البحرية بقيادة بيبرس البندقدارى، فقد فارقوا الملك الناصر الأيوبى، لما رأوه من ضعف رأيه وتخاذله، وكان قد أرسل ابنه الملك العزيز ومعه تقادم وعدة من الأمراء إلى هولاكو خان يطلب مدّه بالعون والجند كى يسترد مصر من أيدى

---

(١) أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر جـ٣ ص١٩٩، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ٧ ص٧٣.

(٢) رشيد الدين: جامع التواريخ م٢ جـ٢ ص٣٠٦، فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص٢٩٤.

(٣) النويرى: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٤٧٣.

المماليك[1] ثم أعرض عن ذلك لما تأكد من صحة عزم هولاكو على أخذ بلاده، والقضاء على ملكه، فبقى متحيراً لا يعرف إلى أين يذهب؟ إلى مصر حيث أعداؤه القدامى من المماليك، أم إلى الحجاز؟ وأخيراً هام على وجهه عند منطقة تيه بنى إسرائيل حتى قبض عليه كيتوبوقا قائد جيش المغول بوشاية من أحد أتباعه، فأرسله إلى هولاكو الذى قتله بعد فترة فى تبريز بشمالى إيران انتقاماً لما جرى على جيشه من الهزيمة فى عين جالوت.

وأمام هذا التداعى الخطير الذى اعتور غالبية الملوك الأيوبيين فى الشام فى مواجهة المغول، حتى انتهى حالهم بين أمرين أولهما القبول بالتبعية لهولاكو وثانيهما الفرار من وجهه، وعلى هذا فقد وجد قطز نفسه مضطراً لاتخاذ عدة إجراءات منها:

أ- إجابة طلب المماليك البحرية والسماح لهم بالقدوم إلى الديار المصرية للاستفادة من براعتهم فى القتال، فكان وصولهم إلى القاهرة يوم السبت الثانى والعشرين من ربيع الأول سنة ٦٥٨هـ حيث أولى قطز الأمير بيبرس اهتماماً واضحاً، فتلقاه فى ديوان الوزارة وأقطعه قصبة قليوب[2].

ب- الشروع فى جمع الأموال، فقرر على كل رأس من أهل مصر والقاهرة ديناراً واحداً، وأخذ من أجرة الأملاك شهراً واحداً، وأخذ من أغنياء الناس والتجار زكاة أموالهم معجلاً، وأخذ من الترك الأهلية ثلث المال، وأخذ على الحيطان والسواقى أجرة شهر واحد[3]. .

---

(١) أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر جـ٣ ص١٩٧، اليونينى: ذيل مرآة الزمان جـ١ ص٤٥، ابن الوردى: تتمة المختصر جـ٢ ص١٩٩.

(٢) ابن أيبك الدوادارى: كنز الدرر وجامع الغرر جـ٨ ص٤٩، النويرى: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٤٧١، العينى: عقد الجمان جـ١ ص٢٣٤.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ ص٣٠٦، ص٣٠٧.

ج- قبول انضمام البدو إلى الجيش ليسهموا بدورهم كمتطوعين فى الدفاع عن مصر، وتناسى ما كان منهم فى أيام الملك المعز أيبك[١].

د- الاستفادة من الخلاف المفاجئ الذى وقع بين المغول والصليبيين فى الشام حول مدينة صيدا، حيث هاجم أحد البارونات المسمى الكونت "جوليان الصيداوى" دورية مغولية، وقتل ابن أخى القائد كيتوبوقا، فسخط المغول، وتوجهوا إلى صيدا فاستولوا عليها فى أوائل رمضان سنة ٦٥٨هـ ونهبوها وأخذوا منها ثلاثمائة أسير[٢] فكان هذا إيذاناً بانتهاء الحلف الصريح بين المغول والصليبيين[٣].

وهكذا أصبحت الجبهة المصرية مهيأة إلى حدٍّ كبير لخوض غمار الحرب المقبلة ضد المغول، وإن كانت قلوب المسلمين لا تزال ترجف رعباً مما قد يأتى به المستقبل القريب من نتائج مروعة إذا ما انتصر المغول فى هذه المعركة الحاسمة.

وجاءت وفاة الخان الأعظم المغولى منكو آن فى أواخر سنة ٦٥٧هـ رحمة بالمسلمين عامة وبأهل الشام ومصر خاصة فقد اضطر أخوه هولاكو إلى مغادرة حلب فى يوم الأحد الرابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٦٥٨هـ/سنة ١٢٦٠م متوجهاً إلى إيران مع القسم الأكبر من جيشه المغولى، تاركاً لقائده الكبير كيتو بوقا مهمة إتمام الحرب ضد المماليك[٤].

وكان هولاكو خان قبل رحيله قد أرسل - على عادة المغول فى مثل هذه

---

(١) أبو شامة: الذيل على الروضتين ص٢٠٧، اليونينى: ذيل مرآة الزمان جـ١ ص٣٦١.

(٢) هانس إيرهار دماير: تاريخ الحروب الصليبية ص٣٩٩، ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص٥٣٨.

(٣) فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص٢٩٩، وانظر أيضًا
Grousset: Lempire Des steppes. P. 437.

(٤) رشيد الدين: جامع التواريخ م٢ جـ١ ص٣٠٦، السيد العرينى: المغول ص٢٦٣.

الأحوال –خطاب تهديد شديد اللهجة إلى الملك المظفر قطز، جاء فى أوله "من ملك الملوك شرقاً وغرباً، القآن الأعظم، باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء، يعلم الملك المظفر قطز الذى هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم يتنعمون بأنعامه، ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك، يعلم الملك المظفر قطز، وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال أنّا نحن جند الله فى أرضه، خلقنا من سخطه، وسلطنا على من حلّ به غضبه، فلكم بجميع البلاد معتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم، وأسلموا إلينا أمركم.. إلخ[1].

وقد رأى قطز بحصافة أن يخرج لمقاتلة عدوه إلى الشام مفضلاً ذلك على انتظاره عند الصالحية كما كان يشير بذلك بعض أمراء المماليك، وتمكن بيبرس الذى كان يقود طليعة الجيش المصرى من إلحاق أول هزيمة بطلائع المغول التى كانت قد تقدمت إلى منطقة غزة، فعدّ ذلك فاتحة خير للمسلمين، وبدأ أهل الشام يلتقطون أنفاسهم ويترقبون نتيجة المعركة الحاسمة.

أما المظفر قطز فبعد أن دخل غزة سلك طريق الساحل، فاجتاز مدينة عكا وهى يومئذ بأيدى الصليبيين، فلما عاينوه أرسلوا إليه الهدايا والتحف، والتقاه ملكها فعرض عليه أن يأخذ عسكره ويسير فى خدمته، فلاطفه السلطان قطز، وخلع عليهم واستحلفهم ألا يكونوا له ولا عليه، وقال لهم: والله العظيم متى سار معى فارس منكم أو راجل قاتلتكم قبل ملتقاى للمغول، فعند ذلك كتب ملك عكا إلى أتباعه بما سمعه من السلطان[2].

---

(١) ابن أيبك الدوادارى: كنز الدرر وجامع الغرر جـ٨ ص٤٧ ص٤٨، القلقشندى: صبح الأعشى جـ٨ ص٦٣، المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك جـ١ ق٢ ص٤٢٧، ص٤٢٩.

(٢) ابن دقماق: الجوهر الثمين جـ٢ ص٦٢–ص٦٣، وليم موير: تاريخ دولة المماليك فى مصر ص٣٩.

وفى الحقيقة لم تكن أحوال الصليبيين تسمح لهم بتقديم أية مساعدة للسلطان قطز أو المغول، حيث تطور النزاع الذى نشب بين الجنوية والبنادقة سنة ٦٥٤هـ/سنة ١٢٥٦م إلى حرب أهلية دخلت فيها كل العناصر المسيحية ومنها الداوية والاسبتارية وغيرهما على طول ساحل الشام براً وبحراً، فقتل عدد كبير منهم وتلفت كميات هائلة من البضائع، ولم ينته هذا الصراع إلا بعقد معاهدة بين الطرفين فى شوال سنة ٦٥٦هـ أكتوبر سنة ١٢٥٨م(١).

أما لدى الجانب المغولى فقد اعتمد كيتوبوقا – بالإضافة إلى خبرته الطويلة فى الحروب وصيته الذائع فيها – على عدة اعتبارات توهم أنها ستحقق له الانتصار على المصريين منها:

أ- مقولة الملك الناصر يوسف صاحب حلب لهولاكو من أنه لم يبق بمصر إلا نفر قليل من العسكر، وبقايا من مماليك لا يأبه أحد لهم، وأنه يكفى القليل من الجيش المغولى لإلحاق الهزيمة بهم(٢).

ب- الاعتقاد بأن المماليك ما داموا قد انقسموا على أنفسهم وتصارعوا على السلطة فلن يكون بوسعهم إعداد جيش قوى موحد يمكنه الصمود طويلاً فى الحرب.

ج- مساندة بعض الملوك الأيوبيين للمغول ومنهم الملك السعيد صاحب الصُبيبة، والملك الأشرف صاحب حمص.

د- انهيار الروح المعنوية لدى الشاميين والمصريين وشعورهم باليأس من إمكانية تحقيق النصر على المغول بعد الهزائم التى ألحقها هولاكو

---

(١) هانس إيرهارد: تاريخ الحروب الصليبية ص٣٩٣، أحمد العبادى: فى التاريخ الأيوبى والمملوكى ص١٥٢.

(٢) بيبرس الدوادارى: زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة جـ٩ ص٦٧.

بالإسماعيلية فى إيران والعباسيين فى العراق والأكراد وغيرهم بالجزيرة، والشاميين فى حلب ... إلخ.

وبلغ من غرور كيتوبوقا وصلفه، أن استكثر على المماليك نجاحهم فى هزيمة طليعة جيشه بقيادة بيدرا عند غزة، وبالتالى رفض انتظار الإمدادات التى كانت فى طريقها إليه من بعلبك ودمشق، وألقى بنفسه وجيشه فى آتون المعركة.

وفى يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان سنة ٦٥٨هـ/الثالث من سبتمبر سنة ١٢٦٠هـ[١] انتصر المصريون بقيادة السلطان قطز على المغول فى عين جالوت انتصاراً حاسماً ردّ الاعتبار للروح الإسلامية المفتقدة بعد أن كان قد أنهكها الخوف واليأس والعجز طويلاً.

ويرى المؤرخ الشيعى العراقى الدكتور جعفر خصباك غير ذلك فهو يقول "ولا عبرة بهزيمة المغول فى عين جالوت سنة ٦٥٨هـ؛ لأنها معركة وقعت بين جزء فقط من جيش هولاكو وقوات إسلامية وسورية متفوقة عليها تفوقاً كبيراً"[٢].

وفى تقديرى أن هذا الرأى قد تحامل كثيراً على المصريين وعلى انتصارهم الكبير فى عين جالوت إذ لا عبرة فى معارك المغول فى هذا العصر بعدد الجند أو كثرة العتاد، فالتاريخ يذكر أن المغول قد حققوا انتصارات حاسمة فى الصين وبلاد ما وراء النهر وشرقى أوربا على جيوش تفوقت عليهم كثيراً فى العدد والعتاد، وذلك لما كانوا هم عليه – آنذاك – من حسن الإعداد والتدريب ودقة الاستطلاع والتخطيط، ومهارة المناورة والمباغتة وكفاءة القيادة والالتزام بالطاعة للأباطرة.

وبالإضافة إلى ذلك كان المغول يحاربون بسلاح آخر أشد فتكا، وهو الحرب

---

(١) أبو شامة: الذيل على الروضتين ص٢٠٧، الجنابى: الحافل الوسيط جـ٢ ص٣٦ (مخطوط)، ابن الوردى: تتمة المختصر فى أخبار البشر جـ٢ ص٢٠٦.

(٢) جعفر خصباك: العراق فى عهد المغول الإيلخانيين ص١٨.

النفسية، فقد نشروا الرعب حولهم فى كل أرض حلوا بها، وتركوا خلفهم أثاراً مروعة من التدمير وسفك الدماء وهتك الأعراض، حتى فقد الناس جميعاً الأمل فى أن ينتصر عليهم أحد أيا كان، وتفيض كتابات المؤرخين المعاصرين ومنهم على سبيل المثال لا الحصر ابن الأثير (ت/٦٣٠هـ) النسوى (ت/٦٤٤هـ)، سبط ابن الجوزى (ت/٦٥٤هـ) بنماذج كثيرة لهذا التوحش المغولى الذى لا نظير له.

ولم يكن هذا الرعب من نصيب العامة فقط بل إن كثيراً من الحكام قد نالهم قسط كبير من ذلك فسارعوا إلى حضرة هولاكو فى مراغة وتبريز يقدمون فروض الولاء والطاعة ومنهم السلطان عز الدين السلجوقى، وأخوه ركن الدين[1] والأتابك سعد الدين بن أبي بكر أتابك فارس[2] وبدر الدين لؤلؤ حاكم الموصل[3] وليت الأمر توقف عند ذلك فإن الملوك الأيوبيين فى الشام سارعوا أيضاً إلى أداء نفس الدور المخزى وشارك بعضهم بشجاعة فائقة فى الحرب ضد المسلمين فى عين جالوت فكان جزاؤه القتل[4].

وهناك عنصر آخر مهم استبسل فى القتال إلى جانب المغول فى عين جالوت مدفوعاً بتعصبه الدينى، وهؤلاء هم الأرمن والكرج الذى وجدوا فى السير فى ركاب الغزو المغولى المدمر إرضاء لما استكن فى نفوسهم من حقد وضغينة تجاه المسلمين الذين عادت إليهم ملكية بيت المقدس منذ سنة ٦٤٢هـ.

ويكفى لكى ندرك مدى خطورة الموقف فى عين جالوت أن نتصور أن المغول هم الذين كانوا قد كسبوا المعركة، والنتائج التى كان يمكن أن تترتب على ذلك وأثرها

---

(١) رشيد الدين: جامع التواريخ م٢ جـ٢ ص٣٠١، عباس العزاوى: تاريخ العراق بين احتلالين جـ١ ص٢١٨.

(٢) محمد موسى هنداوى: سعد الشيرازى ص١٥٤، السيد العرينى: المغول ص٢٢٨.

(٣) خواند امير: حبيب السير م٣ جـ١ ص٩٧، عباس إقبال: تاريخ مفصل إيران جـ١ ص١٨٤.

(٤) ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص٥٣، ابن إبراهيم الحنبلى: شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ص٣٢٤.

فى حياة المسلمين فى مصر والشام والحجاز.

وعلى هذا يمكننا أن نقرر أن الرأى القائل بأن موقعة عين جالوت لا عبرة لها، إنما هو من قبيل التجاوز وعدم الدقة فى التعبير والتقدير.

نتائج موقعة عين جالوت

لم يكن القتال فى عين جالوت أمراً سهلاً مرده إلى العدد أو العتاد، ولقد شعر المسلمون بصعوبة الموقف فى أثناء القتال، حتى إن السلطان قطز عندما شعر بازدياد الضغط على جنده ألقى بخوذته على الأرض واندفع فى مقدمة جيشه صارخاً "وا إسلاماه" فاستبسل جنده فى القتال وتراصوا فى ثبات من جديد فى مواجهة العدو الشرس حتى تمكنوا من زحزحته وأعادوه إلى مواقعه الأولى، فكان هذا الثبات مفتاح النصر الكبير، وما تلاه من نتائج مهمة منها:

أ- القضاء على الخرافة المتواترة التى كانت تقول: إن المغول قوم لا يغلبون، وبالتالى زال لدى المسلمين الإحساس بالخوف من المغول واليأس من تحقيق النصر عليهم.

ب- اندحار المدّ المسيحى النسطورى القادم من الشرق تحت عباءة الغزو المغولى والذى تمكن من قبل فى تحقيق بعض النجاح فى إيران والعراق، وتوافق مع مسيحى الكرج والأرمن.

ج- إعادة الوحدة السياسية بين مصر والشام بعد أن تقاعس الأيوبيون عن تحقيقها، وتخاذلوا أمام المغول ما بين هارب أو خاضع.

د- بعث روح جديدة فى المسلمين وبخاصة الإيرانيون الذين تحملوا وطأة الغزو المغولى المتوالى، فنهضوا محاولين اجتذاب المغول إلى حوزة الإسلام الذى

نجح بعد صراع طويل مع البوذية والمسيحية فـــى تحقيــق هــذا السـبق الحضارى[1].

هـ- فتح مجال رحيب للعلاقات الحميمة بين المماليك فى مصر، والمغول فـى القبجاق، وكانوا قد دخلوا الإسلام مقتدين بزعيمهم بركة خـــان ابـن عـم هولاكو وكان قد استاء لما فعله هولاكو بالمسلمين فى بغداد، ومن إقدامـــه على قتل الخليفة العباسى المستعصم بالله بعد أن خرج إليه مستأمناً.

و- تدعيم سلطة المماليك فى مصر والشام، وإضفاء الشرعية عليها باعتبارهـا حامية للإسلام، وصائنة للحرمين الشريفين وقت اشتداد الخطر.

ز- حماية أوربا من تهديد المغول لها، إذ إن المغول لو تقدمـــوا إلـى أوربـا الغربية، واستقروا فيها بعاداتهم السهوبية القلقة، لكان تأثيرهم مروعاً علـى الحياة هناك[2] ولقد سبق للأوربيين فى شرقى قارتهم أن ذاقوا الأمرين على أيدى المغول فى بلغاريا والمجر وبولندا، بل أن مدينة صيدا الصليبية علـى ساحل الشام لم تسلم من أذاهم وضررهم كما سبق القول.

ح- تحول أنظار المسلمين إلى القاهرة التى غدت عاصمتهم الأولى ومركزهـم الثقافى الآمن بعد أن تحولت بغداد عاصمة الخلافة العباسية والمسلمين إلـى مدينة ثانوية فى ظل دولة هولاكو فى إيران، الذى اختار مدينة مراغة فـى أذربيجان لتكون عاصمة لدولته التى امتدت من نهر جيحون شرقاً إلى نـهر الفرات غرباً.

---

(١) فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص٣١٨، ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبيـــة جـ٣، ص٥٣٨.

(٢) إبراهيم العدوى: التاريخ الإسلامى أفاقه السياسية وأبعاده الحضارية ص٣٨٤.

إدارة الشام

أدرك قطز بوضوح أن انتصاره على المغول فى عين جالوت لن يكون نهاية المطاف، ومن ثمة كان عليه أن يعيد ترتيب الأوضاع فى الشام حتى يتمكن من إعداد جبهة قوية تصمد فى مواجهة الغزو المغولى المرتقب، وعليه فقد شرع فى اتخاذ عدة إجراءات مهمة منها:

أ- القضاء على بقايا المغول شمالى الشام

وكان الفارون من المغول بعد هزيمتهم فى عين جالوت قد سارعوا إلى الاتجاه شمالاً، وانطلق فى أثرهم الأمير بيبرس البندقدارى، فوجدهم قد سارعوا إلى ترك ما كان معهم من أسرى المسلمين، وحاولوا التخفف مما معهم حتى أنهم رموا أولادهم وضربوا رقاب من عجزوا عن حمله من نسائهم، فألحق بيبرس بهم هزيمة قاسية عند مدينة حمص[1] فتجرأ عليهم المسلمون بعد ذلك وانطلقوا خلفهم يقتلون ويأسرون منهم بعد أن كان الرعب قد تمكن فى القلوب من ناحيتهم.

ب- السيطرة على دمشق

خضعت دمشق لسيطرة المغول بعدما ألحقوا الدمار بكثير من المدن الشامية التى استولوا عليها من قبل، ونال المسلمين فيها على وجه الخصوص كثير من الأذى، ولهذا بادر إليها السلطان قطز، فتغيرت فيها أوضاع كثيرة منها:

١- إزالة عملاء المغول عن رئاسة السلطة فى دمشق، وكان هؤلاء عقب فرار الملك الناصر الأيوبى عن المدينة ودخول المغول إليها قد ساموا الأهالى كثيراً من الخسف والظلم، وعلى رأس هؤلاء الوزير الخائن زين الدين الحافظى الذى بادر مع رفاقه بالهرب إلى هولاكو فى مراغة، أما من تبقى فى دمشق من هؤلاء العملاء فقد أمر قطز بشنقهم[2].

---

(١) أبو شامة: الذيل على الروضتين ص٢٠٩، العينى: عقد الجمان جـ١ ص٢٤٤.

(٢) ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص٥٤، ابن دقماق: الجوهر الثمين جـ٢ ص٦٤، ابن سباط: صدق الأخبار جـ١ ص٣٩٢.

٢- كف أيدى المسلمين عن الانتقام من النصارى بدمشق، وكان هؤلاء - لما عرفوا أن كيتوبوقا ونائبه أيل سبان يدينـــــان بالمســـيحية علـــى المذهب النسطورى - قد استطالوا على المسلمين بدق النواقيس، وإدخال الخمر إلى الجامع الكبير، ورفع الصليب والمرور به فى شوارع المدينة، وإلزام الناس فى حوانيتهم على القيام له، والتمادى فى ذم الإسلام والقول بأن النصرانيـة هى الدين الصحيح، فلما تحقق النصر فى عين جالوت ثار جماعة من العوام وحرقوا كنيسة مريم، وخربوا بعضها فى السابع والعشرين من رمضان سنة ٦٥٨هـــ، فوصل كتاب السلطان قطز لتسكين الناس وطمأنتهم(١) وبوصوله إلى دمشق خمدت هذه الفتنة واستقرت نفوس المسلمين والمسيحيين معاً.

٣- تفويض نيابة دمشق إلى الأمير علم الدين سنجر الحلبى الصالحى وتكليـف الأمير فخر الدين أبى الهيجا خشترين بتولى الجوانب الإدارية فى المدينـــة، وإلزامهما بالإسراع فى معالجة أثار الوجود المغولى ورد المظالم وإعــــادة الحقوق(٢).

جـ- ترتيب نواب السلطنة

وقد انتهج قطز فى ذلك منهجاً غير متوقع، فعلى الرغم من الصراع العنيف بين المماليك والأيوبيين على الحكم فإنه أقرّ الملك الأشرف مظفر الدين موسى على مملكته بحمص والرحبة وتدمر، ولعل مرجع ذلك إلى أن الأشرف موسى قد التزم بما سبق أن

---

(١) ابن شاكر الكتبى: فوات الوفيات والذيل عليها جـــ٣ ص٢٠١، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـــ٧ ص٨٠، ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب جـــ٥ ص٢٩١.

(٢) أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر جـــ٣ ص٢٠٥، الذهبى: العبر فى خبر من غـــبر جـــ٥ ص٢٤٢.

تعهد به قبل عين جالوت، كذلك أقرَّ الملك المنصور بن الملك المظفر على مملكته بحماه، أما حلب فقد عهد بها إلى الملك المظفر بن الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل السابق[1] ولعل قطز كان يهدف من وراء ذلك إلى أن تأتيه أخبار تحركات المغول بانتظام من الموصل التى تعتبر أقرب البلدان موقعاً إلى المعسكر الرئيسى للمغول فى مراغة.

مصرع قطز

لما شعر قطز باستتباب الأمور فى الشام قرر أن يعود أدراجه مرة أخرى إلى مصر، فقاد الجيش حتى وصل إلى حدود الصالحية، وهناك وقع فى خطأ جسيم حيث خرج منفرداً للصيد، فانتهز خصومه من المماليك البحرية بقيادة بيبرس البندقدارى الفرصة واغتالوه يوم السبت سادس عشر ذى القعدة سنة ٦٥٨هـ[2].

وفى الحقيقة فإنه لا ينبغى إرجاع مسألة اغتيال السلطان قطز إلى إخلافه وعده لبيبرس بإدارة حلب فحسب، وذلك أن قطز كان يدرك تماماً أن كبار أمراء المماليك البحرية وعلى رأسهم بيبرس إنمّا يطمعون فى منصب السلطان لأن كلَّ واحد منهم كان يرى فى نفسه الجدارة فى الوصول إلى هذا المنصب الخطير، وبالتالى كانوا يستكثرون على قطز أن يستحوذ دونهم بالأمر، كذلك كان قطز يدرك أنه إذا منح بيبرس إمارة حلب، فلن يكون ذلك إلا بداية انقسام خطير تهتز له أركان الدولة، فما كان بيبرس ليتوقف عن تجميع أمراء المماليك البحرية وغيرهم عنده ليشرع من هناك

---

(١) النويرى: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٤٧٦، ابن دقماق: الجوهر الثمين جـ٢ ص٦٠، المقريزى: السلوك جـ١ ق١ ص٤٢٥.

(٢) ابن أيبك الدوادارى: كنز الدرر وجامع الغرر جـ٨ ص٦٠، الذهبى: العبر جـ٥ ص٢٤٣، العينى: عقد الجمان جـ١، ص٢٦٠.

فى التحرك صوب مصر فتعود الدولة إلى حالة التمزق التى كانت عليها قبل عين جالوت.

أما أخطاء قطز التى أودت بحياته وعرشه فهى إعطاء الوعد وأخلافه وعدم الاحتراس بالخروج منفرداً إلى الصيد، وترك المتآمرين يدبرون له رغم علمه بذلك على أمل أن الخلاص منهم يكون أوفق فى قلعة الجبل بمصر فعاجلوه، وقضى الله فيه أمره، وعلى وجه العموم كان قطز موصوفاً بالمواظبة على الصلوات، مجتنباً شرب الخمر، كما كان شجاعاً مقداماً حسن التدبير لشئون مملكته[1] فى الفترة القصيرة التى تولاها.

---

(١) أبو شامة: الذيل على الروضتين ص٢١٠، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ٧ ص٨٤.

المبحث الرابع

تأسيس الدولة

الظاهر بيبرس (٦٥٨ - ٦٧٦هـ - ١٢٦٠ - ١٢٧٨م)

نجح الأمير بيبرس وزملاؤه من المماليك البحرية فى اغتيال السلطان المظفر قطز فى أوج انتصاره كما سبق القول وانطلقوا جميعاً إلى المخيم السلطانى عند الصالحية. حيث جرى انتقال السلطة إلى المتغلبين، وأضحى بيبرس سلطاناً عقب مبايعة أتابك العسكر الأمير فارس الدين أقطاى المستعرب له، ثم توجهه مع الجيش إلى القلعة حيث بايعه نائب السلطنة الأمير عز الدين أيدمر الحلبى، فدانت له أمور السلطنة كافة فى مصر وبادر بيبرس عقب ذلك إلى إدخال بعض التعديلات العسكرية والسياسية، فأبقى أتابك العسكر السابق فى نفس وظيفته إلى حين تستقر له أمور الجيش، وعزل نائب السلطنة وعين مكانه الأمير بدر الدين الخازندار، وعزل عن الوزارة الصاحب يعقوب بن الرفيع وولى مكانه الصاحب بهاء الدين بن حنا، ثم شرع يقرب إليه كبار الأمراء ويغدق عليهم الرتب والإقطاعات حتى أحكم قبضته على مختلف الشئون الإدارية والعسكرية فى الدولة[١].

وفى خطوة أخرى أكثر وعياً أبطل بيبرس كلّ ما كان السلطان قطز قد فرضه على الأهالى من الضرائب عند إعداد جيشه للخروج لملاقاة المغول[٢] فزال عنهم الخوف الذى كان قد ملأ قلوبهم من المماليك البحرية عند توليه السلطنة لأنه منهم ورئيسهم.

---

(١) ابن دقماق: الجوهر الثمين جـ٢ ص٦٧، العينى: عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان جـ١ ص٢٦٣، ابن اياس: بدائع الزهور جـ١ ص٣١٠.

(٢) النويرى: نهاية الأرب جـ٣٠ ص٣٧٧، الذهبى: العبر جـ٥ ص٣٠٩، ابن اياس: بدائع الزهور جـ١ ص١٠٣.

ولم يكتف بيبرس بما سبق بل أظهر التقرب إلى العلماء والقضاة والفقهاء، وأبدى اهتمامه بالمتصوفة وعدّد زيارته لهم، واحتفى بمشايخهم القبارى والشاطبى والبدوى، وأولى الشيخ خضر عناية خاصة ومكّنه فى كثير من أمور الدولة حتى إنه كان يصطحبه فى كثير من حروبه وأسفاره[١].

ومن جانب آخر حرص بيبرس على إقامة العدل بين رعاياه ومعاملتهم بالمساواة، فتولى بنفسه النظر فى المظالم وأقام تحت قلعة الجبل لذلك دار العدل التى كان يتولى رئاستها، ويجلس بها للفصل فى قضايا رعيته فى يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع.

كذلك أدخل الظاهر بيبرس تعديلات على نظام القضاء، إذ لما تبين له توقف قاضى قضاة مصر تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز الشافعى فى كثير من القضايا لكثرتها، وافق على أن يكون القضاء فى مصر على المذاهب الأربعة، فأقر تاج الدين الشافعى فى قضاء الشافعية، وولى الشيخ شرف الدين عمر بن صالح السبكى قضاء المالكية، والقاضى بدر الدين بن سليمان قضاء الحنفية، والقاضى شمس الدين محمد بن الشيخ عماد الدين إبراهيم المقدسى قضاء الحنابلة، وكتب لكل منهم تقليداً وأجاز لهم أن يولوا نواباً عنهم بأنحاء الديار المصرية[٢].

وأظهر بيبرس تمسكه بالدين الإسلامى فاتخذ قراراً بإبطال الخمور وإغلاق الحانات ثم زاد فى عقوبة شارب الخمر، فبعد أن كانت تتوقف عند الجلد فقط أصبحت تشمل الإعدام أيضاً، فارتدع بذلك جماعة كبيرة والتزموا جادة الصواب[٣].

---

(١) اليونينى: ذيل مرآة الزمان جـ٢ ص٣٢٤، اليافعى: مرآة الجنان جـ٤ ص١٦١، ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ ص١٠٣.

(٢) النويرى: نهاية الأرب جـ٣٠ ص١١٨، المقريزى: السلوك جـ١ ق٢ ص٥٣٨-ص٥٤٠.

(٣) بيبرس المنصورى: التحفة الملوكية فى الدولة التركية ص٥٦.

وكان على بيبرس بعد ذلك أن يدعم شرعية ملكه بوجه خاص، وأحقية المماليك في الحكم بوجه عام، وكان عليه أن يدعم ذلك أمام عامة المسلمين بوسائل عملية، فرأى بثاقب بصره أن يسلك في هذا المضمار اتجاهين مهمين:

١- السيطرة على الأراضي المقدسة

أدى سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ في يد المغول إلى توقف الحجاج العراقيين في أمر الحج، فلم يعد لهم تقدم كما كان في زمن الخلفاء العباسيين، لأن المغول بعد إزالتهم الخلافة العباسية في بغداد لم تكن لهم ولاية على الحرمين الشريفين، وصار التقدم في إقامة شعائر الحج لأمير الحج المصري لكون السلطان بالديار المصرية قد أصبح نافذ الأمر فيهما، لقيامه بمصالحها من كسوة البيت الحرام ورعاية الحجيج، بتأمين سبيل الحج لهم، ورفع المكوس عنهم وغير ذلك، وأول من قام بذلك بعد الخلفاء العباسيين من ملوك مصر الظاهر بيبرس.

وكان النصر العظيم الذي حققه المسلمون في عين جالوت سنة ٦٥٨هـ قد أكسب الظاهر بيبرس مكانة سامية بين ملوك عصره، ومن ذلك أن الملك المظفر يوسف بن المنصور صاحب اليمن كان قد خرج إلى مكة ليؤدي شعائر الحج سنة ٦٥٩هـ، فخرج عنها الشريفان إدريس بن قتادة، وأبو نمي خوفاً منه، فلما قضى ما يجب عليه من الوقوف بعرفة وقف عند الصخرات، وطلعت أعلامه مضمومة مع أعلام الملك الظاهر بيبرس، فقال له أحد أمرائه: هلا أطلعت أعلامك يا مولانا السلطان قبل أعلام المصريين، فقال له سلطان اليمن: "أتراني أوخر أعلام ملك كسر المغول بالأمس، وأقدم أعلامي لأجل حضوري ومغيبه، لا أفعل هذا أبداً" ثم مضى في حجه فأتمه[1].

---

(١) عمر بن فهد: إتحاف الورى جـ٣ ص٨٢، الخزرجي: العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية جـ١ ص١٣٣.

وقد اشترط الظاهر بيبرس على أميرى مكة شروطاً مهمة منها الامتناع عن أخذ المكوس من أهالى مكة، والامتناع عن حرمان أحد من المسلمين من زيارة بيت الله الحرام، وعدم التعرض التجار، وألزمهما بأن تكون الخطبة والسكة باسمه[1].

أما مدينة الرسول الكريم ﷺ فقد أبدى السلطان بيبرس اهتماما كبيراً بها، فبعث فى أوائل تملكه الأخشاب والحديد والرصاص، ومن الصناع ثلاثة وخمسين صانعاً بكل ما رازمهم، وأنفق عليهم وأمدهم بما يحتاجون إليه من الآلات والنفقات حتى أتموا عمارة المسجد النبوى الشريف الذى كان قد تعرض لحريق هائل فى أول رمضان سنة ٦٥٤هـ[2].

كذلك جدد بيبرس البيمارستان (المستشفى) بالمدينة النبوية، ونقل إليه سائر المعاجين (المراهم) والأكحال والأشربة (الأدوية)، وبعث إليه طبيباً من الديار المصرية[3].

ولما رأى بيبرس أن الأمر قد استقر له توجه بنفسه إلى الحج لقضاء مناسكه، فبدأ بزيارة قبر الرسول ﷺ ثم سار إلى مكة فأدى بها شعائر الحج، وعلق كسوة البيت الحرام بيده، وخلع على كبار رجال الحجاز[4] وكان بيبرس يهدف من وراء ذلك كله إلى تأكيد سيطرته على الحجاز من ناحية واكتساب احترام المسلمين عامة له باعتباره حامى الحرمين الشريفين من ناحية أخرى.

---

(١) المقريزى: السلوك جـ١ ق٢ ص٥٨، جمال سرور: دولة بيبرس فى مصر ص١١٦.

(٢) بيبرس المنصورى: مختار الأخبار ص٢٢، السخاوى: التحفة اللطيفة فى تاريخ المدينة الشريفة جـ١ ص٣٨٥.

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور: الظاهر بيبرس ص١٦٠.

(٤) النويرى: نهاية الأرب جـ٣٠ ص١٦٦-ص١٦٧، المقريزى: السلوك جـ١ ق٢ ص٥٨٠-٥٨٢.

٢- إحياء الخلافة العباسية

استند الظاهر بيبرس فى هذا الشأن إلى اعتقاد مؤداه أن الخلافة العباسية هى المصدر الشرعى الذى يعتقد عامة المسلمين فى أن الولاء له يمنح الحكام المسلمين شرعية الحكم فى بلادهم، ومن ثم شرع فى استدعاء أحد أبناء البيت العباسى إلى القاهرة حيث جرت مراسم تقليده منصب الخلافة العباسية فى احتفال مهيب حضره كبار أمراء المماليك والأئمة والقضاة والعلماء وعلى رأسهم الشيخ عز الدين بن عبد السلام ليشهدوا على صحة نسب الخليفة الجديد[١].

وكان من الطبيعى أن يقلد الخليفة العباسى فى القاهرة السلطان بيبرس حكم البلاد التى بيده، وما يفتح به الله عليه من البلاد الإسلامية الواقعة تحت سيطرة المغول أو الصليبيين، وعلى هذا نقشت السكة باسميهما معاً، وتصدر اسم الخليفة العباسى الخطبة سابقاً على اسم الظاهر بيبرس[٢] الذى حظى بلقب "قسيم أمير المؤمنين".

وفى الحقيقة كان الظاهر بيبرس يبغى من وراء إحياء الخلافة العباسية السنية بالقاهرة إلى أهداف عدة منها:

- القضاء نهائياً على أى أمل لبقايا الشيعة الإسماعيلية فى مصر[٣] فى استعادة الحكم للفاطميين، وكانوا يطمعون فى ذلك لما زالت الدولة الأيوبية بمقتل تورانشاه بن نجم الدين أيوب فى مصر سنة ٦٤٧هـ.

---

(١) النويرى: نهاية الأرب جـ٣٠ ص٢٩، بيبرس المنصورى: مختار الأخبار ص١٥.

(٢) ابن سباط: صدق الأخبار جـ١ ص٤٠٥، محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك م١ جـ٢ ص١٢.

(٣) وليم موير: تاريخ دولة المماليك فى مصر ص٤٢، هنرى لاووست: نظريات شيخ الإسلام ابن تيمية ص١٧٢.

- إحباط أى محاولة قد يقوم بها أى فرع من الأيوبيين لاسترجاع الملك من المماليك عامة، ومنه هو بوجه خاص.
- ردع كبار أمراء المماليك ممن قد تسول لهم أنفسهم أن يكونوا أنداداً له أو منازعين على العرش.
- رغبة الملك الظاهر فى الظهور بمظهر الحامى الأول للمسلمين والإسلام[1].

وعلى الرغم من ذلك فقد واجهت بيبرس صعوبات عديدة داخل مصر وخارجها، فسارع إلى مواجهتها بقوة وصلابة حتى نجح فى التغلب على معظمها، فأثبت بذلك كفاءة وحسن سياسة.

أولاً: فى الداخل

أ- ثورة الشيعة

وتلك حركة تزعمها رجل يدعى الكورانى، كان قد ظهر فى أيام السلطان الشهيد المظفر قطز، وادّعى أشياء من قبيل البدع، فاعتبرت خروجاً منه على الدين فاعتقل وجلد حتى تاب، وجدّد إسلامه على يد الشيخ عز الدين بن عبد السلام، ثم أطلق من الاعتقال فأقام بالجبل الأحمر[2] شرقى القاهرة.

وعقب اعتلاء الظاهر بيبرس عرش السلطنة فى مصر فى أواخر سنة ٦٥٨هـ عاد الكورانى لممارسة نشاطه من جديد، فأظهر الزهد وجمع حوله جماعة من الغلمان

---

(1) Prawdin: the mongol Empire P. 363.
وانظر أيضاً: بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ص٣٦٦، على إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية ص٢٢٢.

(٢) المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك جـ١ ق٢ ص٤٢٠، إبراهيم نور الدين: حياة السيد البدوى ص٨٢.

الذين يعملون فى اصطبلات المماليك وانضم إليهم بعض السودان، فحرضهم الكورانى على العصيان وشق عصا الطاعة على الدولة، وكتب لهم رقاعاً بإقطاعات حددها لهم وعلى هذا خرجوا ليلاً وشقوا القاهرة وهم ينادون (يا آل علي)، وفتحوا دكاكين السيوفيين بين القصرين، وأخذوا ما فيها من سلاح، كما اقتحموا اصطبلات الجيش وأخذوا منها الخيول، فخرج إليهم العسكر وأحاطوا بهم وأوثقوهم، فأصبحوا مصلوبين على باب زويلة وسكنت الثائرة[١].

وبالطبع كان هؤلاء من الذين يعتنقون المذهب الشيعى الإسماعيلى الذى كانت بقاياه لا تزال موجودة منذ أيام الفاطميين فى مصر، ومن ثم كانت هذه الثورة تحريضاً على قلب نظام الحكم المملوكى السنى واستبداله بنظام آخر شيعى[٢].

وتركت هذه الثورة أعظم الأثر فى سياسة بيبرس الذى أصبح يحقد على هؤلاء الشيعة الذين حاولوا زلزلة أركان عرشه الذى لم يكن قد تولاه إلا منذ شهور قليلة وسفك من أجله دماء غالية ما كان لها أن تسفك، وأغلب الظن أن القضاء على هذه الثورة الشيعية لم يكن كافياً فى تقدير بيبرس للتخلص التام من أنصار المذهب الشيعى الذين كانوا يتركزون فى عدة مناطق فى جنوبى مصر مثل أدفو وإسنا وأسوان وغيرها[٣] وعلى هذا فقد بذل قصارى جهده فى تدعيم المذهب السنى، فأخذ يرعى المدارس السنية ويدعمها بالهبات المالية[٤].

كذلك شرع الظاهر بيبرس فى بناء مدرسته الكبرى فى القاهرة سنة ٦٦٠هـ

---

(١) العينى: عقد الجمان جـ١ ص٢٧١، ناصر الدين شاه: العقائد الشيعية ص٩٦.

(٢) سعيد عاشور: الظاهر بيبرس ص٤٤، أحمد مختار العبادى: فى التاريخ الأيوبى والمملوكى ص١٦٧.

(٣) الأدفوى: الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد ص٣٣-ص٤٩.

(٤) العينى: عقد الجمان جـ١ ص٣٨٢، ستانلى بول: سيرة القاهرة ص١٨٥.

وخصص لها أوقافاً عديدة، ولما تمّ الفراغ منها فى سنة ٦٦٢هـ بنى بجوارها مكتباً لتعليم أيتام المسلمين القرآن الكريم، وقرر لمن فيه الخبز كلّ يوم والكسوة فى فصلى الشتاء والصيف[١].

واهتم بيبرس بإعادة الجامع الأزهر إلى ما كان عليه فى عهد الفاطميين، وكانت الصلاة قد توقفت فيه منذ أيام الناصر صلاح الدين الأيوبى[٢] غير أن الدراسة بهذا الأثر الكبير تحولت فى أيام بيبرس عن المنهج الشيعى إلى المذهب السنى.

ب- ثورة البدو

عاد حصن الدين بن ثعلب زعيم قبائل البدو فى مصر إلى الثورة فى مطلع حكم الظاهر بيبرس سنة ٦٥٩هـ/سنة ١٢٦١م، غير أن السلطان الظاهر استطاع أن يوقع به، حتى شنقه بالإسكندرية[٣].

وقد اثار ذلك استياء البدو بالصعيد، فثاروا ووثبوا على والى قوص الأمير عز الدين الهواش وقتلوه[٤] فأرسل إليهم السلطان بيبرس جيشاً بقيادة الأمير عز الدين الأفرم فأوقع بهم وبدد شملهم وأخضعهم[٥].

---

(١) المقريزى: الخطط جـ٢ ص٣٧٨ ص٣٧٩، جمال سرور: دولة الظاهر بيبرس فى مصر ص١٤٨.

(٢) بيبرس المنصورى: التحفة الملوكية ص٦٠، النويرى: نهاية الأرب جـ٣٠ ص٩٣-ص٩٤، ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ ص٣٤٠.

(٣) سعيد عاشور: العصر المماليكى فى مصر والشام ص٣٢٤، أحمد مختار العبادى: فى التاريخ الأيوبى والمملوكى ص١٢٧.

(٤) المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك جـ١ ص٤٧١.

(٥) سعيد عاشور: العصر المماليكى فى مصر والشام ص٣٢٥.

ج- تأمين حدود مصر الجنوبية

كان داود ملك الحبشة لما انتزع الحكم فى بلاد النوبة من عمه شكندة، امتنع عن دفع الجزية السنوية المقررة لسلطان مصر، وتجاوز حدود مملكته مغيراً على بعض قرى الديار المصرية واستولى على كثير من الأسرى المسلمين بأسوان وعيذاب[1].

وقد انتهز بيبرس هذه الفرصة ليثأر من أهالى بلاد النوبة الذين كانت غزواتهم لا تنقطع عن صعيد مصر فخرجت حملة مملوكية إلى بلاد النوبة سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٥م ووصلت إلى دنقلة حيث أنزلت بجيش النوبة هزيمة منكرة[2].

وبعد إعادة الملك المخلوع شكندة عرض أمراء المماليك على أهالى بلاد النوبة الإسلام أو الجزية أو القتل، فاختاروا الجزية، وهكذا خضعت النوبة تماماً للنفوذ الإسلامى فى أيام الظاهر بيبرس[3].

ثانياً: فى الخارج

وقد تركزت معظم هذه الصعوبات فى منطقة بلاد الشام وما حولها، وهى منطقة أحاط بها الأعداء من جهات عدة، ففى الغرب وعلى امتداد الساحل يوجد الصليبيون الذين تمتد مناطق نفوذهم من أنطاكية فى الشمال حتى عكا وما يليها من المدن فى اتجاه الجنوب، وعلى مقربة من الصليبيين يربض الشيعة الإسماعيلية فى قلاعهم الحصينة، وفى الشرق فيما يلى نهر الفرات يقبع العدو الأكبر وهم المغول الوثنيون الذين ذاقوا مرارة الهزيمة فى عين جالوت لأول مرة فى تاريخ انتصاراتهم الحافل، فباتوا موتورين يترقبون فرصة الثأر القريب، وفى الشمال تقع مملكة أرمينيا المسيحية وهى حليف راسخ للمغول من جهة، ومناصر مؤازر للصليبيين فى الشام من جهة

---

(١) جمال سرور: دولة الظاهر بيبرس فى مصر.

(٢) مفضل ابن أبي الفضائل: النهج السديد ص٣٣٤، ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ ص٣٣٥.

(٣) جمال سرور: دولة الظاهر بيبرس فى مصر ص١١٤.

أخرى.

كذلك كان على بيبرس أن يواجه تلك المتاعب التى أثارها بعض كبار أمراء المماليك المناوئين له فى الشام، كما كان عليه أن يتعامل مع بقايا الحكام الأيوبيين فى الكرك وحمص وحماة بذكاء وحذر شديدين.

ومما زاد فى خطورة هذه الصعاب أنها جاءت فى أغلبها متزامنة فى وقت واحد، كما أن بعض هذه القوى التى كان على الظاهر بيبرس أن يصارعها دخلت فى تحالف مكين مع بعضها الآخر، ومن ذلك التحالف بين الصليبيين والمغول والذى كان يظهر فى تبادل الهدايا والسفارات بين الطرفين، ثم دور مملكة أرمينيا الذى سبق الإشارة إليه.

وقد أثبت الظاهر بيبرس كفاءة عسكرية رائعة، وبراعة سياسية فائقة فى مواجهة هذه القوى مجتمعة، فأعلى بذلك من قدرة مصر وزاد من مكانتها فى وقت فقدت فيه كل القوى الإسلامية الموجودة فى المنطقة آنذاك قدرتها على المواجهة أو الصمود فى وجه الأخطار الخارجية المحدقة بالمسلمين.

وسنكتفى بالإشارة هنا إلى أهم هذه الأخطار وأبعدها أثرًا على الساحتين العسكرية والسياسية.

أ- الصليبيون

لما كان بيبرس مدركاً تماماً للطبيعة العسكرية التى نشأت عليها دولة المماليك فى مصر، وموقناً لما يجول بنفوس كبار أمراء المماليك من تطلع إلى السلطة والنفوذ، وراغباً فى إشعار المسلمين بأن حكمه ملاذ لبلادهم وأمن من سطوة غيرهم من المعتدين، فقد استفاد بذكاء من انشغال مغول إيران بالصراع المرير الذى نشب بينهم وبين بنى جلدتهم من مغول القبجاق فى الفترة الأخيرة من حياة هولاكو التى انتهت فى

ربيع الآخر سنة ٦٦٣هـ سنة ١٢٦٥م[١].

وعلى هذا فقد توجه بجيشه إلى الشام صوب معاقل الصليبيين، وشرع فى حصار قيسارية جنوبى عكا فى مطلع شهر جمادى الأولى سنة ٦٦٣هـ، فسقطت المدينة فى يده بعد هجوم خمسة أيام، وهدمت أسوارها رغم تحصينات لويس التاسع لها، ولم يكن بيبرس يشجع الجنود فى أثناء ذلك ببسالته المعهودة فى خوض غمار الحرب فحسب بل كان يشاركهم أيضاً فى هدم الأسوار بنفسه[٢].

وفى رجب من نفس السنة هبط الظاهر بيبرس بجيشه جنوباً فانقض على قلعة أرسوف البحرية، وكان الحماس الدينى بالغاً أشده عند المسلمين حتى إن الفقراء والمتصوفة بل والنساء أيضاً تجمعوا لحفر الخنادق تحت الأرض، فلما سقطت القلعة أكره السلطان المدافعين عنها من الصليبيين على العمل فى تخريبها بأيديهم، ثم أخذهم غنائم حرب ليزين بهم موكبه فى أثناء رجوعه إلى القاهرة، فساروا وصلبانهم مكسورة وأعلامهم منكسة، وأما السلطان فقد أجزل العطاء لكبار أمراء جيشه فأقطعهم القطائع من أرض فلسطين التى انتزعها من الصليبيين[٣].

وفى العام التالى شدد بيبرس الحصار على قلعة صفد الصليبية معقل الفرسان الداوية الواقعة على جبل خلف بحيرة طبرية، وكان يشتغل بنفسه فى ضرب المدينة ويبذل قصارى جهده فى العناية بالمرضى والجرحى من المسلمين، وتمكن جند السلطان من الاستيلاء على القلعة بعد ثلاثة أسابيع، حيث جرى إعدام الحامية من

---

(١) ابن الفوطى: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة ص٣٥٣، عباس العزاوى: تاريخ العراق بين احتلالين جـ١ ص٢٤٩.

(٢) وليم موير: تاريخ دولة المماليك فى مصر ص٤٥، جمال سرور: دولة الظاهر بيبرس فى مصر ص٧٠.

(٣) العينى: عقد الجمان جـ١ ص٣٩٦-ص٤٥ ص٤٦، ستيفن رنسيمان: تاريخ الحرب الصليبية جـ٣ ص٥٤٦.

الداوية بسبب ارتكابهم الكثير من الفظائع والمذابح ضد المسلمين[١].

ولم يكد الظاهر بيبرس يعود إلى القاهرة فى أخريات سنة ١٢٦٦م سنة ٦٦٤هـ حتى سارع بعد أربعة شهور فقط إلى مغادرتها عائداً إلى جبهة الشام، فما أن وصل إلى غزة حتى وافاه رسل الصليبيين بها ومعهم الكثير من الهدايا، وعدد من أسرى المسلمين، وبذلوا كثيراً من الجهد فى محاولة إثنائه عن عزمه فى مواصلة الحرب ضد الصليبيين[٢].

ثم توجه السلطان إلى دمشق، ومنها سار بجيشه إلى صفد لتقوية دفاعاتها، ومن هناك فكر فى مهاجمة عكا التى كانت تشتهر بحصونها المنيعة وإمداداتها التى توافيها من أوربا عبر البحر وجزيرة قبرص، إلا أنه عدل إلى حين عن الهجوم عليها، وعقد عدة معاهدات مع أميرى صور وبيروت ومع فرسان الاسبتارية فى حصن الأكراد وفى حصن المرقب[٣].

وفى سنة ٦٦٦هـ/سنة ١٢٦٨م شرع بيبرس فى الاستيلاء على مدينة يافا، فنجح فى ذلك بعد أن باغت القلعة على حين غرة، ثم استولى على حصن "الشقيف"[٤] واستدار إلى الأمير بوهيمند صاحب طرابلس وأنطاكية ورأى أن يعاقبه لمساعدته المغول فى أثناء هجومهم على سورية واجترائه على مهاجمة حمص، فخرّب كل الأراضى الواقعة حول طرابلس، ثم تقدم بجيش كبير صوب أنطاكية فأسر حاكم المدينة الصليبى ثم هاجم أسوارها واخترقها ووقع جميع من فيها أسرى، وهناك أرسل

---

(١) المقريزى: السلوك جـ١ ق٢ ص٥٤٧، وليم موير: تاريخ دولة المماليك فى مصر ص٤٧.

(٢) ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص٥٥١، قاسم عبده قاسم: الأيوبيون والمماليك ص١٦١.

(٣) القلقشندى: صبح الأعشى جـ١٤ ص٣١.

(٤) مفضل بن أبى الفضائل: النهج السديد ص١٦٤، العينى: عقد الجمان جـ٢ ص٢١.

بيبرس رسالة تهكم إلى بوهيمند المقيم آنذاك فى طرابلس يشاطره الحزن والأسى على مصير حاضرة ملكه الضائع، بعبارات تنم عن التقريع والسخرية[1].

وأدت هذه الانتصارات إلى نشر الفزع بين المعاقل الصليبية التى بدأت تترقب هجوم الظاهر بيبرس عليها فى أى وقت، ومن ثم فقد سارع حاكم عكا الحصينة بطلب عقد هدنة مع السلطان مقابل التنازل عن نصف أملاكه فى عكا[2].

أما الظاهر بيبرس فإنه توجه إلى مهاجمة إمارة طرابلس الصليبية غير أنه عاد إلى القاهرة لما نمت إلى أسماعه الأنباء عن حملة صليبية مرتقبة من قبل ملك فرنسا[3].

ولما اطمأن الظاهر بيبرس إلى عدم صدق الأخبار السابقة خرج من القاهرة معاوداً الهجوم على طرابلس سنة ٦٦٩هـ/سنة ١٢٧١م وفى هذه الأثناء اطرد التدعيم الأوربى لمدينة عكا، فوصل إليها الأمير الإنجليزى إدوارد، فقبل الظاهر بيبرس التفاوض مع الأمير بوهيمند السادس أمير طرابلس[4].

وفى وسط هذه الأحداث جهز بيبرس أسطولاً لغزو جزيرة قبرص سنة ٦٦٨هـ/سنة ١٢٧٠م التى كانت قد ساعدت عكا مساعدة جدية، غير أن عاصفة هبت عليه، فحطمته قريباً من الجزيرة[5] فشرع الظاهر فى إنشاء أسطول جديد[6].

---

(١) المقريزى: السلوك جـ١ ق٢ ص٥٦٨، عاشور: مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك ص١٩٩.

(٢) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ص٣٣١، المقريزى: السلوك جـ١ ق٢ ص٥٧٠.

(٣) سعيد عاشور: مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك ص٢٠٠، قاسم عبده قاسم: الأيوبيون والمماليك ص١٦٣.

(٤) النويرى: نهاية الأرب جـ٣٠ ص٣٣٢، ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص٥٧٤.

(٥) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ص٣٨٧، وليم موير: تاريخ دولة المماليك فى مصر ص٥٠.

(٦) المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك جـ١ ق٢ ص٦١٥.

وقد أدى عدم انقطاع المدد الجديد من أوربا والخوف مما عساه يحدث في الشرق ببيبرس إلى أن يعقد هدنة لمدة عشر سنوات مع مدينتي صور وعكا، وعقب ذلك بقليل مات بوهيمند السادس أمير طرابلس التي دخلت أيضاً في مهادنة مع بيبرس سنة ٦٧٣هـ/سنة ١٢٧٥م، فلم يبق للصليبيين من البقاع بعد هذه المدن الثلاث إلا شيء قليل[١].

ب- المغول

اضطر السلطان بيبرس منذ اعتلائه عرش مصر إلى التعامل مع مغول هولاكو الذي أصبح حاكماً على إيران والعراق معاً، فهم – كما سبق القول – لم ينسوا عار الهزيمة في عين جالوت سنة ٦٥٨هـ، ولم ينسوا الظاهر بيبرس بالذات فهو الذي دحر المقدمة المغولية التي وصلت إلى غزة بقيادة بيدرا نائب كيتوبوقا قائد المغول، وهو أي بيبرس أحد أبرز القادة المسلمين الذين خاضوا بشجاعة معركة عين جالوت وكان بحق من أكبر مفاتيح النصر فيها، وهو الذي طارد فلول المغول حتى حمص ودحرهم وشتت شملهم بعد عين جالوت مباشرة، وهو الآن قد صار ملكاً على مصر التي أوصى الخان الأعظم منكوقاآن أخاه هولاكو بالاستيلاء عليها.

وطوال الفترة التي أمضاها هولاكو في عاصمته مراغة بعد عودته من حلب سنة ٦٥٨هـ قبل موقعة عين جالوت فإننا لا نكاد نسمع عن إعداده جيشاً للثأر من المماليك وبخاصة بيبرس، ذلك أنه كان يطمع في أن يصبح خاقاناً أعظم مكان أخيه منكوقاآن الذي توفي سنة ٦٥٧هـ غير أن المنصب انتقل إلى أخيهما قوبيلاي قاآن، فشعر هولاكو بإحباط شديد، وفترت همته إلى حين وانكب على تدبير شئون مملكته الشاسعة التي أصبحت تمتد ما بين نهر جيحون شرقاً حتى الفرات غرباً.

---

(١) وليم موير: تاريخ دولة المماليك في مصر ص٥٠، جمال سرور: دولة الظاهر بيبرس ص٨٦.

وكان بيبرس قد استقبل فى ذلك الوقت سفارة من لدن بركة خان زعيم مغول القبجاق – وكان قد أسلم وتبعه غالبية قومه إلى الإسلام – يخبره فيها أنه قد انتقم مما فعله هولاكو بالمسلمين فى بغداد وبخاصة اجتراؤه على قتل الخليفة المستعصم بالله، ويعرفه بتفاصيل المعركة التى وقعت عند حدود نهر ترك شمالى إيران سنة ٦٦١هـ، وكيف هُزِم جيش هولاكو هناك على أيدى أبناء جلدته من مسلمى المغول فى القبجاق.

ورحب بيبرس بهذا النصر ترحيباً كبيراً وشرع يوطد علاقته مع بركة خان ويعاهده على أن يضغط هو بشدة على مغول إيران عبر نهر الفرات حتى يَضْعُف جيش هولاكو وينقسم لمحاربة الحليفين المسلمين فى وقت واحد، فيتشتت ويعجز.

وقد بالغ بعض المؤرخين المحدثين[١] عندما ظنَّ أن بيبرس قد أمعن فى توطيد أركان علاقته مع بركة خان المغولى حتى إنه قد تزوج ابنته، وليس هذا صحيحاً، فبيبرس تزوج ابنة بركة خان الخوارزمى وأنجب منها ابنه الأكبر السعيد محمد بركة خان الذى تولى العرش من بعده[٢].

أيا كان الأمر فإن هذه العلاقة الوطيدة بين بيبرس ومغول القبجاق قد استمرت متينة الأواصر حتى بعد وفاة بركة خان نفسه سنة ٦٦٥هـ، ومن ثمة استمر هذا التحالف أمراً مزعجاً لمغول إيران فترة طويلة من الوقت.

وكان آباقاخان (٦٦٤-٦٨٠هـ) لما تولى الحكم مكان أبيه هولاكو قد انشغل فى حروب طاحنة ضد مغول القبجاق سنة ٦٦٤هـ[٣] وضد أبناء عمومته الأخرين فى بلاد ما وراء النهر فى الشرق فى الفترة ما بين عامى ٦٦٦ : ٦٦٨هـ حتى تمكن من هزيمتهم عند مدينة هراة فى خراسان[٤] بل إنه عاود الهجوم شرقاً مرة أخرى فاجتاز

---

(١) جمال سرور: دولة الظاهر بيبرس ص١٠٦، قاسم عبده قاسم: الأيوبيون والمماليك ص١٥٧.

(٢) ابن أيبك الدوادرى: كنز الدرر جـ٨ ص٢١٩، المقريزى: السلوك جـ١ ق٢ ص٦٤١، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ٧ ص٢٦١.

(٣) البناكتى: روضة أولى الألباب ص٤٢٧، اليونينى: ذيل مرآة الزمان جـ٢ ص٣٦٣.

(٤) رشيد الدين: جامع التواريخ م٢ جـ٢ ص٤٥، شبولر: العالم الإسلامى فى العصر المغولى ص٥٧.

بجيشه نهر جيحون حيث قام جنوده بتدمير مدينة بخارى سنة ٦٧١هـ[١].

ولم يتوان الظاهر بيبرس عن الاستفادة من انشغال آباقا بهذه الحروب فسارع إلى تدعيم سلطانه على الشام فضغط بشدة على الإمارات الصليبية على ساحل البحر المتوسط[٢] وشرع أيضاً فى انتزاع قلاع الإسماعيلية تدريجياً حتى انصاعوا له[٣] كما اتجه جيشه شمالاً إلى مملكة أرمينيا حيث هاجم الأرمن حلفاء المغول بعنف وقهرهم وأسر ابن ملكهم فى ذى القعدة سنة ٦٦٤هـ/أغسطس سنة ١٢٦٦م[٤].

وفشلت محاولات آباقا فى إقناع الغرب المسيحى بفكرة التحالف المشترك ضد الظاهر بيبرس وكان آباقا قد أرسل سفارة إلى البابا كليمنت الرابع سنة ٦٦٥هـ/سنة ١٢٦٧، وإلى الملك جيمس الأول سنة ٦٦٧هـ/سنة ١٢٦٩م وإلى مجمع ليون سنة ٦٧٢هـ/١٢٧٤م[٥] ويبدو أن هؤلاء جميعاً قد أفزعتهم انتصارات الظاهر بيبرس على جبهات عديدة فأدركوا عدم جدوى التحالف مع آباقا، كما كانوا مشغولين بقضاياهم الداخلية لذلك ذهبت محاولات آباقا للتحالف مع الصليبيين فى الشام أدراج الرياح، على حين أخذ الظاهر بيبرس ينتزع معاقلهم هناك واحداً تلو الآخر، ومن ثم لم تفلح المناوشات التى قامت بها بعض الفرق المغولية فى الحصول على أى نتيجة ملموسة وكانت تلك قد هاجمت قلعة البيرة الواقعة على نهر الفرات سنة ٦٦٣هـ سنة ١٢٦٥م وفرت عندما علمت بقدوم السلطان[٦] وهاجمت شمالى الشام سنة ٦٦٧هـ وسنة

---

(١) فامبرى: تاريخ بخارى ص١٩٦، عبد السلام فهمى: تاريخ الدولة المغولية فى إيران ص١٥٦.

(٢) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت ص٩٨، ابن سباط: صدق الأخبار جـ١ ص٤١٠.

(٣) بيبرس المنصورى: مختار الأخبار ص٣٣

(٤) استارجيان: تاريخ الأمة الأرمينية ص٢٣٠، انطوان خانجى: مختصر تواريخ الأرمن ص٢٤٠.

(٥) جمال سرور: دولة الظاهر بيبرس فى مصر ص٩٥، قاسم عبده قاسم: الأيوبيون والمماليك ص٤٦٦.

(٦) المقريزى: السلوك جـ١ ق٢ ص٥٧٤.

٦٦٩هـ وعادت أدراجها بسرعة بعد الهزيمة عند حران[١].

كذلك لم تفلح محاولات الصلح التى جرت بين الطرفين فى إزالة العداء المستحكم بينهما، وتجلى ذلك بوضوح فى الرسالة التى بعث بها آباقا إلى الظاهر بيبرس سنة ٦٦٧هـ فى دمشق والتى ورد فيها إن الملك آباقا بن هولاكو لما خرج من المشرق، تملك جميع العالم ومن خالفه قتل، فأنت لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما تخلص منا فالمصلحة أن تجعل بيننا صلحاً، وأنت مملوك أبعت فى سيواس فكيف تشاقق ملوك الأرض وأولاد ملوكها[٢].

وتعكس هذه الرسالة مدى حنق آباقا الذى تخلى عن الأدب فى مخاطبة الملوك الآخرين فقد عيرّ الظاهر بيبرس بأصله المجهول وتعالى عليه بانتسابه هو إلى سلالة ملكية واضحة النسب، على أن هذه الرسالة لم تخرج فى الحقيقة عن كونها محاولة للتخويف أو الإرهاب من جانب آباقا الذى كان مشغولاً آنذاك بمحاربة بنى جلدته من مغول ما وراء النهر، ولقد قابل الظاهر بيبرس هذا التطاول بهدوء تام، ولم يكلف نفسه أو ديوانه عبء كتابة رسالة خطية وإنما قال لرسول آباقا مشافهة "اعلم أنى وراءه بالمطالبة، حتى أنتزع من يده جميع البلاد التى استحوذ عليها من بلاد الخليفة وسائر أقطار الأرض[٣].

وأخيراً ظهر العداء الحقيقى الذى كان يكنه آباقا للمسلمين ولسلطانهم بيبرس عقب هزيمة جنده فى موقعة أبلستين بصحراء الأناضول فى ذى القعدة سنة ٦٧٥هـ/سنة ١٢٧٧م على يد السلطان الظاهر بيبرس الذى دخل عقب انتصاره على المغول وحلفائهم من الأرمن والروم إلى مدينة قيصرية، وضرب السكة باسمه وجعل

---

(١) سعيد عاشور: مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك ص٢٠٢.

(٢) اليونينى: ذيل مرآة الزمان جـ٢ ص٤٠٧، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ٧ ص١٤٥.

(٣) العينى: عقد الجمان جـ٢ ص٤٣، ابن سباط: صدق الأخبار جـ١ ص٤٢٧.

الخطبة باسمه أيضاً، وكانتا من قبل باسم آباقا خان الذى اتجه بمجرد علمه بذلك إلى هناك فى صفر سنة ٦٧٦هـ/يونية سنة ١٢٧٧م، ورأى بأم عينيه صرعى المغول مكدسين فوق بعضهم، ولم يجد من قتلى الروم إلا القليل فلم يتمالك نفسه وبكى ثم أصدر أمراً إلى جنوده بمباشرة القتل العام والنهب، فكان من جملة ما نهبوا نصف مدينة سيواس[١] وبلغ عدد القتلى فى هذه الفعلة البشعة مائتى ألف وقيل خمسمائة ألف من فلاح إلى عامل إلى جندى من قيصرية إلى أرزن الروم وما بينهما[٢].

ج- الإسماعيلية

أسفر سقوط القلاع الرئيسية للإسماعيلية فى إيران، واستسلام زعيمهم ركن الدين خورشاه لهولاكو عن انهيار كبير للكيان الإسماعيلى الذى ظل يؤرق السلاجقة والخوارزميين طويلاً؛ وكان هولاكو يدرك تماماً أنه ما تزال هناك قلاع أخرى عديدة للإسماعيلية فى الشام يمكن استخلاصها بتوجيه من خورشاه الذى كان يملك من النفوذ ما يجعله مسيطراً عليها من الناحيتين العقائدية والسياسية ولهذا أبقى هولاكو على حياة خورشاه بعد استسلامه، ووافق على تزويجه من فتاة مغولية أعجب بها.

ولم يخيب خورشاه ظنّ سيده الجديد هولاكو فأرسل عدة أشخاص من خواصه مع رسل هولاكو إلى قلاع الإسماعيلية فى الشام لدعوة الناس هناك إلى التسليم لولاة الخان المغولى[٣].

وقد رفض الداعى الإسماعيلى أبو المعالى رضى الدين أن يسلم قلاع

---

(١) ابن البيبى: تاريخ سلاجقة الروم ص٣٣٠ - ص٣٣١، ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول ص٥٠٢.

(٢) ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر ص١٨٢، ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص٢٧٢.

(٣) رشيد الدين: جامع التواريخ م٢ جـ١ ص٢٥٧، ميرخواند: روضة الصفا جـ٥ ص٢٥٩.

الإسماعيلية الثمانية فى الشام إلى المغول، فخرج بذلك على أمر إمامه ركن الدين خورشاه، وأراد المقاومة لكنه اضطر أمام انتصارات المغول فى الشام - قبل موقعة عين جالوت - إلى تسليم أربع من هذه القلاع لهم على حين ظلت الأربع الأخرى فى أيدى الإسماعيلية، فلما انتصر السلطان قطز على المغول فى عين جالوت سنة ٦٥٨هـ انتهز الداعى أبو المعالى هذه الفرصة واسترد القلاع التى كانت قد آلت إلى المغول[١].

ويرى مؤرخ محدث[٢] "أن إسماعيلية الشام اشتركوا مع المماليك فى عين جالوت وغيرها من المواقع" وهذا الرأى لا يستند إلى أى مصدر تاريخى معروف، وفى الجانب العملى لم يكن المماليك وهم سنيون متشددون كأسلافهم الأيوبيين ليسمحوا للشيعة الإسماعيلية بالمشاركة معهم فى أى تحالف عسكرى وبخاصة فى معركة مصيرية كعين جالوت، كذلك لم يكن الإسماعيلية فى الشام فى هذا الوقت يملكون جيوشاً نظامية يشاركون بها فى الحروب المفتوحة، فمن المعروف أن خبرتهم الواسعة كانت تتوقف بهم عند تنفيذ عمليات الاغتيال الفردى.

وكان بيبرس لما تسلطن فى ١٧ ذى القعدة سنة ٦٥٨هـ وجلس فى إيوان القلعة قد كتب بذلك إلى الملوك فى الشام كما كتب إلى الإسماعيلية يعرفهم ما جرى أى قتل الملك المظفر قطز[٣] لكن الإسماعيلية لم يحسنوا تقدير الموقف، ولم يتريثوا فما إن وصل السلطان بيبرس إلى دمشق سنة ٦٥٩هـ حتى جاءه رسول الإسماعيلية حاملاً إليه هدية ورسالة مضمونها التهديد والوعيد وطلب ما كان لهم من الإقطاعات والرسوم فى أيام الملك الناصر الأيوبى سلطان الشام، فأجاب الظاهر بيبرس إلى ذلك، وشرع

---

(١) محمد كرد على: خطط الشام جـ٢ ص١١٩، محمد حسين كامل: طائفة الإسماعيلية ص١٠٧.

(٢) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام جـ٤ ص٢٧٧.

(٣) اليونينى: ذيل مرآة الزمان جـ٢٢ ص١١٤، ابن أيبك الدوادارى: كنز الدرر جـ٨ ص٨٤- ص٨٥.

في استعمال الحيلة عليهم.

ومما زاد الأمر تعقيداً أنه في شهر رجب سنة ٦٦٠هـ خرج جماعة من الإسماعيلية على الأمير علاء الدين ايدكين البندقداري وهو راكب على جسر العاصي على نهر حماة وجرحوه، فقبض على جماعة منهم فقتلهم وحبس جماعة أخرى وأخذ أموالهم، فلما وصل الخبر إلى الملك الظاهر قبض على من بمصر من نوابهم، ورتب للأمير علاء الدين ولنفسه حرساً خاصاً للحماية من الاغتيال، فوصلت كتب زعيم الإسماعيلية إليه تستعطفه وتسترضيه فأظهر ذلك[١].

وأمام الضغط الذي مارسه الظاهر بيبرس على الإسماعيلية الذين لم ينسوا قط عداءهم لأهل السنة وهم غالبية أهل الشام، ازداد التقارب بين هؤلاء الإسماعيلية والصليبيين في الشام، وكانوا يرون في الإسماعيلية قوة يمكن الاعتماد عليها في الحد من خطر المماليك، لذا دأبت القوى الصليبية في بلاد الشام على إرسال الهدايا إلى الإسماعيلية اتقاء لشرهم من ناحية وطمعاً في تأييدهم من ناحية أخرى.

وقد رأى الظاهر بيبرس أن يتبع سياسة حكيمة في تعامله مع الإسماعيلية، فبدأ بفرض ضرائب ثقيلة على الهدايا التي اعتاد الصليبيون وغيرهم على إرسالها إلى الإسماعيلية، فأفسد بذلك ناموس الإسماعيلية في هذا الصدد، وأصبح مقدمو الهدايا في حيرة من أمرهم، وصارت يد بيبرس هي الأعلى[٢].

وفي شوال سنة ٦٦٣هـ استرجع الظاهر بيبرس من الإسماعيلية حصن القليعة وهو من أهم قلاعهم الثمانية في الشام[٣] فكانت تلك ضربة قاسية موجهة إلى نفوذهم

---

(١) اليونيني: ذيل مرآة الزمان جـ٢ ص١٥٤-ص١٥٥.

(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك جـ١ ق٢ ص٥٤٣، العيني: عقد الجمان جـ١ ص٤٢٧.

(٣) بيبرس المنصوري: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة جـ٩ ص١١٨.

فى الشام كله، حتى إن الضعف شرع يعتريهم، فاضطروا إلى حماية أنفسهم بدفع الجزية إلى الصليبيين وبخاصة فرسان الاسبتارية فى حصن الأكراد (غربى حمص) فانتهز الظاهر بيبرس هذه الفرصة واشترط فى معاهدة الصلح التى عقدها مع الاسبتارية سنة ٦٦٥هـ/سنة ١٢٦٧م الامتناع عن أخذ الجزية من مختلف مدن المسلمين وكذلك الإسماعيلية[١].

ولم يجد الإسماعيلية أمام الحصار السياسى الذى أحاطهم به الظاهر بيبرس مناصاً من أن يرسلوا إليه مبعوثين يعرضون عليه دفع الجزية التى كانوا يؤدونها من قبل إلى الصليبيين[٢] فجاء ذلك إعلاناً صريحاً بدخولهم تحت التبعية له.

وسلك الظاهر بيبرس منهجاً مختلفاً مع الإسماعيلية بالشام بعد أن أحكم سيطرته على قلاعهم جميعاً، فهو لم يفعل بهم كما فعل هولاكو بإخوانهم فى إيران[٣] الذين تعرضوا للقتل الجماعى بعد نهب ممتلكاتهم وتدمير قلاعهم فى قوهستان وآلموت، ففى الناحية الدينية أمر بيبرس أن تقام المساجد الجامعة فى جميع القلاع الإسماعيلية لتؤدى فيها صلوات الجمع والجماعات ويترضى عن الصحابة بها، كما أمر بإزالة المنكرات وإظهار شرائع الإسلام وشعائره[٤].

وفى الناحية السياسية لم يقتصر الأمر على حبس بعض زعمائهم، إذ إن السلطان كان قد عفا عن البعض الآخر ومنحهم إقطاعات محدودة بمصر ليكونوا دوماً تحت بصره[٥] كما رأى أن يستفيد من فدائيى الإسماعيلية فى توجيه ضربات موجعة

---

(١) ابن شداد: سيرة الظاهر بيبرس ص٤٤، وليم موير: تاريخ دولة المماليك فى مصر ص٥٠.

(٢) النويرى: نهاية الأرب جـ٣٠ ص١٣٤، برنارد لويس: الحشاشون ص٢١٨.

(٣) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ص٣٦٦، محمد كامل حسين: طائفة الإسماعيلية ص١٠٨.

(٤) ابن شاكر الكتبى: فوات الوفيات والذيل عليها جـ١ ص٢٤٤، المقريزى: السلوك جـ١ ق٢ ص٦٠٨.

(٥) وليم موير: تاريخ دولة المماليك فى مصر ص٥٠، سعيد عاشور: الظاهر بيبرس ص٨٣.

إلى الصليبيين فى الشام ومن ذلك تكليفهم باغتيال فيليب مونتفورت صاحب صور فى المحرم سنة ٦٦٩هـ/أغسطس سنة ١٢٧٠م فجاءت وفاته ضربة خطـيرة للوجود الصليبى فى الشرق لأنه كان من أهم رجالاتهم آنذاك[١] كما قاموا باغتيال بـارثولوميو صاحب مرقية – قلعة بساحل الشام فى اتجاه حمص – فى سنة ٦٧٠هـ، وكـان قد توجه إلى أباقاخان بن هولاكو فى إيران مستصرخاً إياه ضد الظاهر بيـبرس، فسيّر وراءه بعض الإسماعيلية فقفزوا عليه وقتلوه[٢].

كذلك حاولوا اغتيال الأمير الإنجليزى إدوارد فى ذى الحجة سنة ٦٧٠هـ/يونية سنة ١٢٧٢م ومع أن جرحه لم يكن قاتلاً إلا أنه ظل يعانى منه بضعة أشهر، فبـادر الظاهر بيبرس بتبرئة نفسه بأن بعث إلى الأمير إدوارد بالتهنئة على نجاته![٣].

هكذا رأينا كيف تعامل السلطان بيبرس مع كل هذه القوى مجتمعة فكان عسكرياً فذا وسياسياً بارعاً، وليس أدل على ذلك من أنه قد تحالف مع قوى أخرى عديدة غـير تلك التى كان يصارعها حتى يضمن وقوفها على الحياد أو مناصرتها له إذا لزم الأمر ومن ذلك:

أ- التحالف مع ملك صقلية ونابولى منفرد بن فردريك الثانى، فقد أرسـل إليـه سفارة كان على رأسها المؤرخ ابن واصل وكان ذلك فى رمضـــان سـنة ٦٥٩هـ[٤].

ب- التحالف مع ميخائيل الثامن باليولوج امبراطور الدولة البيزنطية وأرسل إليه فى سنة ٦٦٠هـ سفارة على رأسها الأمير فارس الدين أقوش المسـعودى،

---

(١) ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص٥٧٠، السيد العرينى: المغول ص٢٩٧.

(٢) المقريزى: السلوك جـ١ ق٢ ص٦٠٠، القزاز: الحياة السياسية فى العراق فى عهد السـيطرة المغولية ص٣٩٩.

(٣) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ص٤٠١، العينى: عقد الجمان جـ٢ ص٩٤.

(٤) بيبرس المنصورى: زبدة الفكرة جـ٩ ص٣٣١.

وضمت عدداً من الأساقفة الأرثوذكس[١].

جـ- التحالف مع ملك إشبيلية وقشتالة الفونسو العاشر وتبادل الهدايا معه[٢].

د- التحالف مع السلطان عز الدين كيكاوس سلطان سلاجقة الروم، ووعده بالمناصرة ضد أخيه قلج ارسلان الذى ينازعه على العرش[٣].

كذلك لم يغفل الظاهر بيبرس واجبه نحو توفير الأمن لمملكته الواسعة التى كانت تمتد من الفرات إلى النوبة، فعمل على العناية بالبريد[٤]، وإقامة أبراج المراقبة فى الداخل أو على الساحل، وتجديد بناء القلاع على الحدود الفراتية وبخاصة البيرة والرحبة، وتجنيد القبائل البدوية على أطراف العراق ناحية نهر دجلة[٥] وردم مصب نهر النيل عند دمياط وتضييقه بالحجارة ووضع سلسلة عظيمة لمنع دخول السفن الكبيرة بقصد الحماية من غارات الصليبيين[٦].

كما اهتم الظاهر بيبرس أيضاً بتقوية الأسطول والجيش، وأشرف بنفسه على بناء سفنه وتجديد عمارتها بتوفير الأخشاب اللازمة من أسيا الصغرى، وكذلك اهتم السلطان بيبرس بشراء المماليك من بلاد القبجاق من بنى جنسه ليدعم سلطانه ونفوذه بهم[٧].

وعلى الإجمال فإن عصره يعد بحق أزهى أوقات النصر والفخار فى دولة المماليك كلها، وعند المسلمين جميعاً آنذاك.

---

(١) المقريزى: السلوك جـ١ ق٢ ص٥١٤، ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ص١٢٩.

(٢) جمال سرور: دولة الظاهر بيبرس فى مصر ص١١٢، قاسم عبده قاسم: الأيوبيون والمماليك ص١٥٧.

(٣) ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص٥٤٤.

(٤) القلقشندى: صبح الأعشى جـ١٣ ص٢١٢.

(٥) المقريزى: السلوك جـ١ ق٢ ص٤٧٦.

(٦) المقريزى: السلوك جـ١ ق٢ ص٤٤١.

(٧) المقريزى: الخطط جـ٢ ص٢١٣.

الخاتمة

رأينا كيف نشأت الدولة المملوكية فى ظروف غاية فى الصعوبة تمثلت فى حتمية التصدى لخطرين كبيرين أولهما الحملة الفرنسية التى قادها القديس لويس التاسع ملك فرنسا فى سنة ٦٤٧هـ انتقامًا من استعادة المسلمين بيت المقدس سنة ٦٤٢هـ. وثانيهما: الحملة المغولية التى خرجت من منغوليا سنة ٦٥٠هـ فاجتاحت قلاع الإسماعيلية فى آلموت ٦٥٤هـ والخلافة العباسية فى بغداد سنة ٦٥٦هـ، وانطلقت من ذلك إلى اجتياح بلاد الجزيرة ومدن الشام حلب، حمص، دمشق.

وكشفت الدولة إبان نشأتها عن طبيعة عسكرية حازمة عوضت بشكل واضح كل الفروق العسكرية التى كانت تجعل النصر فى صالح أعدائها وبخاصة المغول، فقد أظهر المماليك براعة جديدة فى القتال تمثلت فى مجاراة المغول فى سرعة الحركة والتفوق عليهم فيها، واعتمد المماليك على نظام التشكيلات العسكرية (الفرق) بدلاً من تقسيم الجيش فى أثناء الحرب إلى خمسة أقسام على النسق التقليدى [مقدمة – قلب – جناحين – مؤخرة]، واستخدم المماليك فى دقة بالغة أساليب متنوعة فى الانتشار والانسحاب وإعداد الكمائن وتنفيذها.

وأثبت المماليك شجاعة فائقة فى المواجهات العسكرية مع أعدائهم، وانقشعت على أيديهم الأسطورة المغولية التى جثمت على صدور المسلمين طويلاً بأن المغول قوم لا يغلبون، وجاء النصر فى عين جالوت سنة ٦٥٨هـ وابلستين سنة ٦٧٥هـ تأكيدًا لهذه الحقيقة.

ولم يتوقف المماليك عند المواجهة العسكرية مع الصليبيين والمغول بل نجحوا كذلك فى قمع ثورات البدو فى صعيد مصر وفى تأمين حدودها الجنوبية من خطر النوبة، وأرغموا الشيعة الإسماعيلية فى الشام على التخلى عن حصونهم المنيعة وإعلان الولاء لسلطان مصر المملوكى بيبرس.

واستفادت الدولة المملوكية الناشئة من خبرات الأيوبيين فى مجال إدارة الدولة،

فلم تغير كثيرًا من نظم هذه الإدارة، وانصب التغيير على الأشخاص، وعُدَّ ذلك أمرًا خطيرًا خصوصًا فى مرحلة النشأة، ولم يمنع ذلك من زيادة الاهتمام ببعض الدواوين المهمة ومنها ديوان المظالم الذى يرتبط فى الأغلب بمشاكل الرعية وقضاياها.

وكان السلاطين الأول الذين واكبوا نشأة الدولة على درجة عالية من الالتزام بالدين الإسلامى وتنفيذ تعاليمه وبخاصة قطز وبيبرس، أما على بن أيبك فيمكن غض الطرف عنه وعن فترة حكمه، لقصر مدتها من جهة، ولصغر سنه من جهة، ولقيام المظفر قطز بنيابة السلطنة فى هذه الفترة.

وقد أكد هؤلاء السلاطين وبخاصة بيبرس على إثبات شرعية حكمهم، ومن خلال ذلك جرى العمل على فرض نفوذ الدولة المملوكية الفتية على الأماكن المقدسة فى الحجاز، وإحياء الخلافة العباسية من جديد فى القاهرة حيث تلقب بيبرس بلقب قسيم أمير المؤمنين، فأصبح حكمه شرعيًا، وأصبحت دولته أيضًا شرعية.

وعلى وجه العموم، فإن نشأة الدولة المملوكية فى مصر فى هذا التوقيت الحرج تعد – فى تقديرى – إنقاذاً عمليًا خرج بالمسلمين من محنة قاسية كان يصعب عليهم – لولا المماليك – الخروج منها.

ثبت بأهم المصادر والمراجع

أولاً: المخطوطات:

ابن حماد الموصلى: محمد بن أبى بكر بن على (ت/ ٧٥٠هـ)

١- **روضة الأعيان فى أخبار مشاهير الزمان**، مخطوط رقم ٢٦٦، بمعهد إحياء المخطوطات العربية، بالقاهرة.

الجنابى: مصطفى بن حسن بن سنان بن أحمد (ت/٩٩٩هـ)

٢- **الحافل الوسيط والعيلم الزاخر المحيط فى أحوال الأوائل والأواخر**، مخطوط رقم ٢١٠ بمعهد إحياء المخطوطات العربية.

ثانياً: المصادر العربية:

ابن إياس: محمد بن أحمد (ت/ ٩٣٠هـ)

٣- **بدائع الزهور فى وقائع الدهور**، جـ١، نشر قسم الدراسات الإسلامية بالمعهد الألمانى للآثار، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

بيبرس المنصورى: ركن الدين بن عبد الله الدوادارى (ت/٧٢٥هـ)

٤- **التحفة الملوكية فى الدولة التركية**، نشر الدار المصرية اللبنانية بالقاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٥- **زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة**، جـ٩، المدينة المنورة، بدون تاريخ أو تحديد دار النشر، الطبعة الأولى.

٦- **مختار الأخبار**، نشر الدار المصرية اللبنانية بالقاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

ابن تغرى بردى: جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت/٨٧٤هـ)

٧- **المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى**، الجزء الرابع، نشر الهيئة العامة للكتاب، بالقاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

٨- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، الجزءان السادس والسـابع، نشـر دار الكتب المصرية بالقاهرة (نسخة مصورة) الطبعة الأولى، ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م.

ابن دقماق: صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائى (ت/٨٠٩هـ)

٩- الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين، نشر دار عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

الديار بكرى: حسين بن محمد (ت/٩٩٠هـ)

١٠- تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس، المطبعة الوهبيــة بالقـاهرة، الطبعـة الأولى، ١٢٨٣هـ/١٨٦٦م.

الذهبى

١١- العبر فى خبر من غبر، تحقيق الدكتور/صلاح الدين المنجد، نشر مطبعة حكومة الكويت، الطبعة الثانية (مصورة) ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

الرمزى .م.م.

١٢- تلفيق الأخبار، وتلقيح الآثار فى وقائع قزان وبلغار وملوك التتـار، المطبعـة الكريمية فى بلدة (أورنبوغ) روسيا، الطبعة الأولى، ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م.

ابن الساعى: على بن أنجب بن عثمان بن عبد الله (ت/٦٧٤هـ)

١٣- تاريخ الخلفاء العباسيين، نشـر مكتبـة الآداب بالقـاهرة، الطبعـة الثانيـة، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

ابن سباط: حمزة بن أحمد بن عمر (ت/٩٢٦هـ)

١٤- صدق الأخبار، المعروف بتاريخ ابن سباط، طرابلس، لبنان ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

السبكى: تاج الدين عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى (ت/٧٧١هـ)

١٥- طبقات الشافعية الكبرى، نشر دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، الطبعة الأولى.

ابن شاكر الكتبى: محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن (ت/٧٦٤هـ)
١٦- فوات الوفيات والذيل عليها، نشـر دار صـادر بـيروت، الطبعـة الأولـى، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.

أبو شامة: شهاب الدين محمد بن إسماعيل (ت/٦٦٥هـ)
١٧- الذيـل علـى الروضتيـن، نشـر دار الجيـل، بـيروت، الطبعـة الثانيـة، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.

ابن شداد: عز الدين محمد بن على بن إبراهيم (ت/٦٨٤هـ)
١٨- تاريخ الظاهر بيبرس، نشر دار فرانـز شـتاينر، ألمانيـا، الطبعـة الأولـى ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

الصفدى: صلاح الدين خليل بن أيبك (ت/٧٦٤هـ)
١٩- الوافـى بالوفيـات، دار نشـر فرانـز شـتانير، ألمانيـا، الطبعـة الأولـى ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.

ابن طباطبا: محمد بن على، المعروف بابن الطقطقى (ت/٧٠٩هـ)
٢٠- الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية، مطبعة على صبيح، الأزهـر، بالقاهرة، الطبعة الأولى ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م.

ابن عبد الظاهر: محيى الدين أبو الفضل عبد الله بن رشيد الدين (ت/٦٩٢هـ)
٢١- الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر، تحقيق ونشر عبد العزيـز الخويطـر، الرياض، الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

العينى: بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد (ت/٨٥٥هـ)
٢٢- عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان، نشر الهيئـة المصريـة العامـة للكتـاب، بالقاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

أبو الفداء: عماد الدين إسماعيل بن نور الدين أبى الحسن (ت/٧٣٢هـ)

٢٣- المختصر فى أخبار البشر، المطبعة الحسنية المصرية بالقاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م، وأعادت مكتبة المتنبى بالقاهرة نشر هذه الطبعة كما هى دون تحقيق ودون تاريخ.

ابن فهد: عمر بن محمد بن محمد (ت/٨٨٥هـ)

٢٤- إتحاف الورى بأخبار أم القرى، نشر مكتبة الخانجى، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

ابن الفوطى: كمال الدين عبد الرزاق بن تاج الدين أحمد (ت/٧٢٣هـ)

٢٥- الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة، مطبعة الفرات، بغداد، الطبعة الأولى، ١٣٥١هـ/١٩٣٢م.

ابن قزاوغلى: شمس الدين أبو المظفر يوسف (ت/٦٥٤هـ)

٢٦- مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان جـ٨ ق٢، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن بالهند، الطبعة الأولى، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م.

ابن كثير: عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت/٧٧٤هـ)

٢٧- البداية والنهاية فى التاريخ، مطبعة السعادة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م.

المقريزى: تقى الدين أبو العباس أحمد بن على (ت/٨٤٥هـ)

٢٨- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار "الخطط المقريزية" نشر مكتبة الثقافة الدينية، بالقاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.

٢٩- السلوك لمعرفة دول الملوك، نشر دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م.

٣٠- المقفى الكبير، نشر دار الغرب الإسلامى، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

الملطى: عبد الباسط بن خليل الشيخى بن شاهين (ت/٩٢٠هـ)

٣١- نزهة الأساطين فيمن ولى مصر من السلاطين، نشر مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

النويرى: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت/٧٣٣هـ)

٣٢- نهاية الأرب فى فنون الأدب نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

ابن واصل: جمال الدين محمد بن سالم (ت/٦٩٧هـ)

٣٣- مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، مطبعة دار الكتب المصرية، بالقاهرة، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.

اليونينى: قطب الدين موسى بن محمد بن أحمد (ت/٧٢٩هـ)

٣٤- ذيل مرآة الزمان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، الدكن، الهند، الطبعة الأولى، ١٣٧٤هـ/١٩٥٤م.

ثانياً: المراجع العربية:

جمال الدين: عبد الله محمد (دكتور)

٣٥- من تاريخ الشرق الإسلامى الحديث، نشر دار الثقافة للنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

حسن: إبراهيم حسن (دكتور)

٣٦- انتشار الإسلام بين المغول والتتار، مقالات منشورة تباعًا بمجلة الجامعة المصرية، القاهرة، ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م.

حسن: على إبراهيم (دكتور)

٣٧- تاريخ المماليك البحرية، نشر مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٦٤هـ/١٩٤٤م.

حسين: محمد كامل (دكتور)

٣٨- طائفة الإسماعيلية، تاريخها، نظمها، عقائدها، نشر مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م.

حمدى: حافظ أحمد

٣٩- الدولة الخوارزمية والمغول، نشر دار الفكر العربى، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٧٠هـ/١٩٥٠م.

خضباك: جعفر حسين (دكتور)

٤٠- العراق فى عهد المغول الإيلخانيين، مطبعة العانى، بغداد، الطبعة الأولى، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

ربيع: حسنين محمد

٤١- النظم المالية فى مصر زمن الأيوبيين، مطبعة جامعة القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤٥م.

الساعدى: محمد الشيخ حسين

٤٢- مؤيد الدين بن العلقمى وأسرار سقوط الدولة العباسية، مطبعة النعمان، بالنجف، العراق، الطبعة الأولى ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.

سرور: محمد جمال الدين (دكتور)

٤٣- دولة الظاهر بيبرس فى مصر، نشر دار الفكر العربى، القاهرة، الطبعة الأولى (بدون تاريخ).

سليم: محمود رزق (دكتور)

٤٤- عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى، نشر مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٨١هـ/١٩٦٢م.

شلبي: أحمد جاب الله (دكتور)

٤٥- **موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية**، نشر مكتبة النهضة المصرية، بالقاهرة، ١٣٩٨هـ/١٩٧٧م.

الصدفي: رزق الله منقريوس

٤٦- **تاريخ دول الإسلام**، مطبعة الهلال بالفجالة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٣٥هـ/١٩٠٧م.

الصياد: فؤاد عبد المعطي (دكتور)

٤٧- **المغول في التاريخ**، مكتبة الشريف وسعيد رأفت للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

عاشور: سعيد عبد الفتاح (دكتور)

٤٨- **الظاهر بيبرس**، نشر مكتبة مصر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م.

مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، نشر دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، بدون تاريخ.

العبادي: أحمد مختار (دكتور)

٤٩- **في التاريخ الأيوبي والمملوكي**، نشر مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

العدوي: إبراهيم أحمد العدوي (دكتور)

٥٠- **التاريخ الإسلامي، آفاقه السياسية وأبعاده الحضارية**، نشر دار النهضة العربية، بالقاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ/١٩٨٠م.

العريني: السيد الباز (دكتور)

٥١- **المغول**، نشر دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ/١٩٨١م.

العزاوى: عباس
٥٢- تاريخ العراق بين احتلالين، جـ١ (حكومة المغول) نشر مطبعة بغداد، بالعراق، ١٣٥٣هـ/١٩٣٥م.

الغامدى: سعد (دكتور)
٥٣- سقوط الدولة العباسية، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

فهمى: عبد السلام عبد العزيز (دكتور)
٥٤- تاريخ الدولة المغولية فى إيران، نشر دار المعارف/ بالقاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ/١٩٨١م.

قاسم: عبده قاسم، على: السيد على (دكتور)
٥٥- الأيوبيون والمماليك (التاريخ السياسى والعسكرى) نشر مؤسسة عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١/١٩٩٥م.

القزاز: محمد صالح داود (دكتور)
٥٦- الحياة السياسية فى العراق فى عهد السيطرة المغولية، مطبعة القضاء بالنجف، العراق، الطبعة الأولى، ١٢٩٠هـ/١٩٧٠م.

هنداوى: محمد موسى (دكتور)
٥٧- سعدى الشيرازى، نشر مطبعة الخانجى، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٧١هـ/١٩٥١م.

يوسف: جوزيف نسيم (دكتور)
٥٨- العدوان الصليبى على مصر، مطابع رويال، الإسكندرية، الطبعة الأولى، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.

ثالثاً: المصادر والمراجع الفارسية:

اشتيانى: عباس إقبال

٥٩- تاريخ مفصل إيران از استيلاى مغول تا إعلان مشر وطبت، جلد أول از حملة جنكيزتا تشكيل دولت تيمورى، طهران ١٣١٢هـ.ش.

ابن البيبى

٦٠- أخبار سلاجقة الروم "مختصر سلجو قنامه" نقله إلى العربية الدكتور/محمد السعيد جمال الدين، نشر الشركة الحديثة للطباعة، الدوحة، قطر، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

الجوينى: علاء الدين عطا ملك بن بهاء الدين محمد (ت/٦٨١هـ)

٦١- تاريخ جها نكشاى، جزءان، نقله عن الفارسية وقارنه بالنسخة الإنجليزية الدكتور/ محمد التونجى، نشر دار الملاح للطباعة والنشر، حلب، سورية، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

خواندامير: غياث الدين محمد بن همام (ت/٩٤٢هـ)

٦٢- حبيب السير فى أخبار أفراد البشر، از انتشارات: كتا بخانة خيّام، خيا بان ناصر خسرو، طهران ١٣٣٣ شمسى.

ميرخواند: محمد بن سيد برهان الدين خواندشاه (ت/٩٠٣هت)

٦٣- روضة الصفا فى سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء، الجزء الخامس، نشر مكتبة الخيام ومكتبتى مركزى وبيروز، طهران سنة ١٣٣٩ هـ.ش.

الهمذانى: رشيد الدين فضل الله بن عماد الدولة الهمذانى (ت/٧١٨هـ)

٦٤- جامع التواريخ (تاريخ خلفاء جنكيز خان من أوكتاى قا آن إلى تيمور قا آن) نقله إلى العربية الدكتور/فؤاد عبد المعطى الصياد، نشر دار النهضة العربية للطبعة والنشر، بيروت ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م.

جامع التواريخ (تاريخ المغول الإيلخانيين) مع مقدمة رشيد الدين، المجلد الثانى، نقله إلى العربية الأستاذ/ محمد صادق نشأت، الدكتور/محمد موسى هنداوى، الدكتور/فؤاد عبد المعطى الصياد، راجعه وقدّم له الدكتور/يحيى الخشاب، نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومى، القاهرة، الطبعة الأولى، بدون تاريخ.

رابعًا: المراجع الأوربية:

ارنولد: توماس

٦٥- الدعوة إلى الإسلام، نقله إلى العربية الدكتور/حسن إبراهيم حسن، والأستاذ/عبد المجيد عابدين، نشر مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٣٦٧هـ/١٩٤٧م.

استارجيان: ك.ل

٦٦- تاريخ الأمة الأرمينية، نشر مطبعة الاتحاد الجديدة، الموصل، العراق، ١٣٧١هـ/١٩٥١م.

بارتولد: فاسيلى فلاديمير وفتش

٦٧- تاريخ الترك فى أسيا الوسطى، نقله من التركية إلى العربية الدكتور/أحمد السعيد سليمان، وراجعه الأستاذ/إبراهيم صبرى، نشر مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م.

٦٨- تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى، نقله من الروسية إلى العربية الأستاذ/صلاح الدين عثمان هاشم، نشر المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

براون: ادوارد

٦٩- تاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى، نقله من الإنجليزية إلى العربية الدكتور/إبراهيم أمين الشواربى، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م.

بروكلمان: كارل

٧٠- **تاريخ الشعوب الإسلامية**، نقله إلى العربية الأستاذان/نبيه أمين فارس، منير البعلبكي، نشر دار العلم للملايين، بيروت، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

خانجي: انطوان

٧١- **مختصر تواريخ الأرمن**، نقله المؤلف نفسه إلى العربية عن مؤلفات أرمينية، طبع فى أورشليم (القدس) فى دير الأباء الفرنسيسكانيين ١٢٨٥هـ/١٨٦٨م.

رنسمان: ستيفن

٧٢- **تاريخ الحروب الصليبية**، جـ٣، نقله عن الإنجليزية إلى العربية الدكتور/السيد الباز العرينى، نشر دار الثقافة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.

شبولر: برتولد

٧٣- **العالم الإسلامى فى العصر المغولى**، نقله إلى العربية الأستاذ/خالد أسعد عيسى، راجعه وقدَّم له الدكتور/ سهيل زكار، نشر وتوزيع دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

فامبرى: أرمينوس

٧٤- **تاريخ بخارى**، نقله إلى العربية الدكتور/أحمد محمود الساداتى، وراجعه وقدَّم له الدكتور/يحيى الخشاب، نشر المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م.

لامب: هارولد

٧٥- **جنكيز خان إمبراطور الناس كلهم**، نقله إلى العربية اللواء بهاء الدين نورى، نشر مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.

لاووست: هنرى

٧٦- نظريات شيخ الإسلام ابن تيمية فى السياسية والاجتماع، نقلـه إلـى العربيـة الأستاذ/محمد عبد العظيم على، وقدّمه وعلّق عليه الدكتور/مصطفى حلمى، نشـر دار الثقافة، الإسكندرية، الطبعة الأولى، ١٣٩٦هـ/١٩٧٧م.

لوبون: غوستاف

٧٧- حضارة العرب، نقله إلى العربية الأستاذ/عادل زعيتر، نشـر شـركة عيسـى البـابى الحلبى وشركاه، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.

لينبول: ستانلى

٧٨- سيرة القاهرة، نقله إلى العربية الدكتور/حسن إبراهيم حسـن والدكتـور/علـى إبراهيم حسن، والأستاذ/إدوار حليم، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعـة الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

ماير: هابس ابرهارد

٧٩- تاريخ الحروب الصليبية نقله إلى العربية الدكتور/عماد الدين غانم، منشـورات مجمع الفاتح للجامعات، ليبيا، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

موير: وليم

٨٠- تاريخ دولة المماليك فى مصر، نقله إلى العربية الأستاذان محمود عابدين، سليم حسن، نشر مطبعة المعارف، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٤٢هـ/١٩٢٤م.

Bolye: J.A

81. History of Iran. Vol. 5 the Saljuq and mongol Periods, At the University press, Cambridge, 1968.

Dohsson: M le Baron

82. Histoire des mongols, de puis tchinguiz khan jusq'a timour Beyou.

Howorth: Sir Henry

83. History of the mongols, London, 1876.

Schneider: Bret. E.

84. Mediaeval researches from Eastern Asiatic Sources (st Peters burg – London 1887).

Grousset: Reme

85. L. Empire des steppes, Paris, 1948.